الباب الأول
حكاية عاصمة أسمها المحروسة

إذا أردنا أن نتحدث عن القاهرة كعاصمة سياسية لمصر الإسلامية ، علينا أن نعود إلى اللحظة، التى قرر فيها فاتح مصر عمرو بن العاص أن ينشئ عاصمة للدولة الجديدة ، التى انتزعها الفاتح الإسلامى من الإمبراطورية الرومانية . .

وهكذا كانت الفسطاط أول عاصمة لمصر الإسلامية ، منذ نزل ابن العاص أرض الكنانة فى عام ٢٠ هجرية ـ ٦٤١ ميلادية واختار موقع عاصمته غير بعيد عن النيل . . وفى الوقت نفسه نفذ تعليمات عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، بألا يجعل بينه ـ فى المدينة المنورة ـ وبين جنوده فى مصر عائقاً أو بحراً فلا يستطيع نجدتهم . .

●● وظلت الفسطاط عاصمة لمصر ١١٢ عاماً من عام ٦٤١م إلى عام ٧٥٠م إلى أن زالت دولة بنى أمية . .

●● ومع عصر الدولة العباسية تم بناء « العسكر » لتصبح عاصمة لمصر لمدة ١١٨ عاماً من عام ١٣٢هـ إلى ٢٥٤هـ « ٧٥٠م إلى ٨٦٨م » . وإن ظلت « العسكر » مجرد ضاحية لمدينة الفسطاط ، من ناحيتها الشمالية الشرقية .

وكان حائط مجرى العيون يحد « العسكر » من الجنوب ، بينما يحدها من الشمال خط بعضه شارع الخليج المصرى ، وبعضه ميدان السيدة زينب ، وبعضه شارع مراسينا إلى جامع الجاولى ، ويحدها من الشرق خط يمتد من جامع الجاولى إلى شارع الأشرف ، إلى السيدة نفيسة . ويحدها من الغرب شارع الخليج المصرى من قنطرة السد عند تقابل شارع الخليج بشارع مدرسة الطب ، إلى جنينة لاظوغلى . .

●● ثم انتقلت العاصمة إلى « القطائع » التى أنشأها أحمد بن طولون «٢٥٤هـ ـ ٢٩٣هـ » « ٨٦٨م ـ ٩٠٥م » ؛ أى إن القطائع أصبحت عاصمة لمصر لمدة ٣٩ سنة هجرية ، وكان يحدها من الغرب شارع السد ، ومن الجنوب حارة الشيخ سليم بالبغالة ثم إلى قلعة الكبش ، فجنوبًا ميدان صلاح الدين . ومن الشرق ميدان صلاح الدين المعروف أيضاً باسم ميدان محمد على حيث كان ميدان « قره ميدان » . ومن الشمال كان يحدها شارع شيخون وشوارع الصليبة والخضيرى ومراسينا إلى ميدان السيدة زينب . .

ولكن سرعان ما عادت العاصمة إلى الفسطاط ؛ إذ عاد الولاة إلى الفسطاط ثانية من عام ٢٩٣هـ ـ ٣٥٨هـ «٩٠٥ م ـ ٩٦٩ م » أى لمدة ٦٥ سنة هجرية .

وعندما أحرقت الفسطاط التى أصبح العامة يعرفونها باسم : مدينة مصر عام ٥٦٥هـ ـ ١١٧٠م ، كان عمرها إذ ذاك ٥٤٥ سنة هـ ، ظلت منها فى الواقع ٣٤٢ عاماً عاصمة لمصر . .

وخلفتها القاهرة عام ٣٦٢ هـ ـ ٩٧٣م ، التى كانت تبعد عن رأس الدلتا الى الجنوب ٢٣ كيلو متراً

ومصر القديمة ـ جغرافياً ـ هى الآن الجزء الغربى من مدينة الفسطاط القديمة ؛ إذ كانت الفسطاط مكونة من قسمين : قسم شرقى وهو المجاور للجبل ، وهو الفسطاط الأصلية التى وقع فيها حريق شاور وزير الخليفة الفاطمى عام ١١٦٨م . وكله خراب وتلال ولم يبق فيه إلا جامع عمرو وقصر الشمع . . ثم قسم غربى يقع على النيل . وهو الذى يعرف اليوم بمصر القديمة ويسميها العامة : مصر عتيقة . ويحده من الشرق القسم الشرقى من الفسطاط . ومن الشمال المكان المقامة عليه قناطر مجرى الماء ، المعروفة الآن بحائط أو سور العيون ، والتى تنتهى من الغرب بسواقى مجرى الماء التى كانت تنقل مياه النيل إلى القلعة وبساتينها . . ومن الغرب مجرى سيالة جزيرة الروضة الذى يمتد بين شرق النيل ومنطقة جاردن سيتى الحالية .

العاصمة تتجه دائماً نحو الشمال

واللافت للنظر أن العاصمة كانت تتجه باستمرار نحو الشمال منذ كانت فى منف ـ البدرشين الحالية ـ ففى البداية الإسلامية نجد الفسطاط فى أقصى الجنوب كأول عاصمة إسلامية لمصر ، وهى أمام الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة .

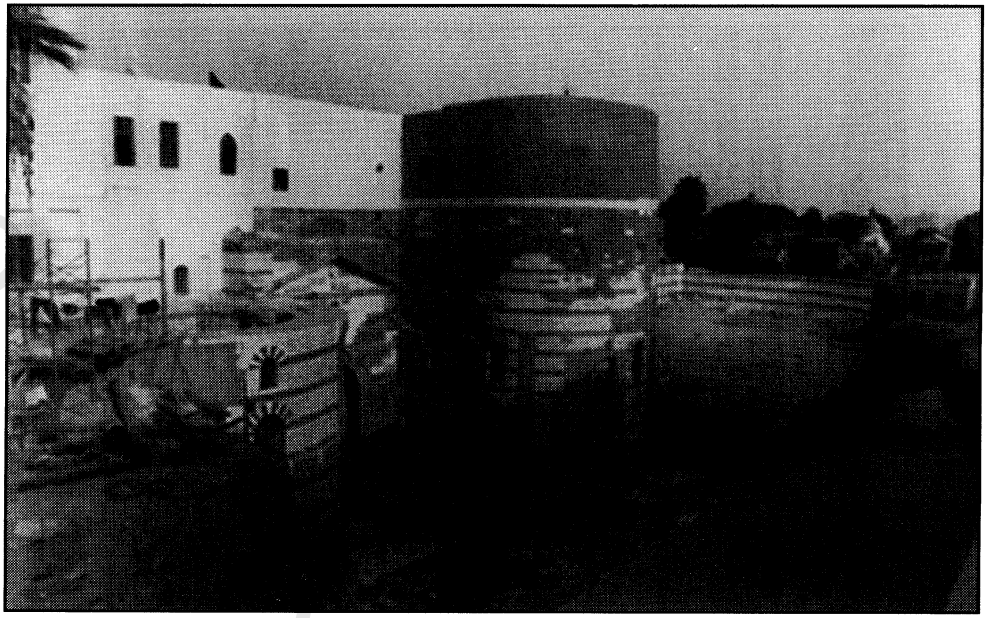

بقايا حصن بابيلون آخر ما بقى من الآثار والمبانى الرومانية فى مصر .

فى مصر القديمة الطريق المؤدى إلى المغارة التى اختبأت فيها العائلة المقدسة .

واجهة جامع عمرو بن العاص فى مصر القديمة ، الفسطاط سابقاً حيث أقيمت أول عاصمة لمصر الإسلامية .

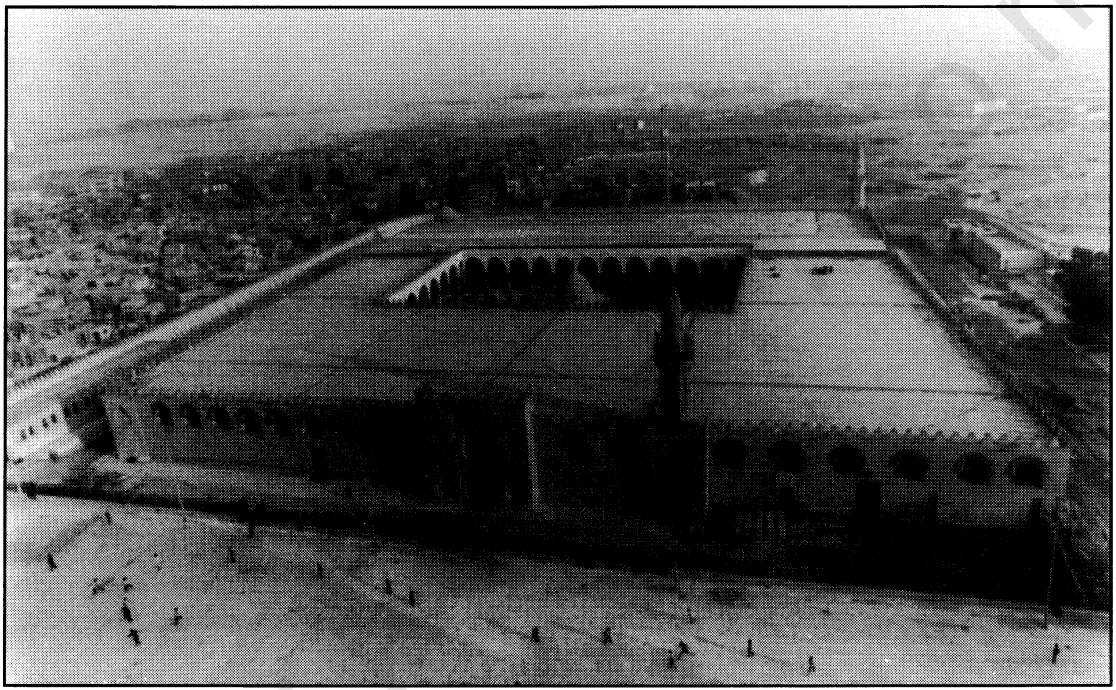

صورة بانورامية لمسجد عمرو بن العاص الذى كان يتوسط مدينة الفسطاط ومازالت المئذنة القديمة صامدة فى واجهة المسجد .

منارة جامع عمرو بن العاص تزين واجهة أول مسجد بنى فى أفريقيا .

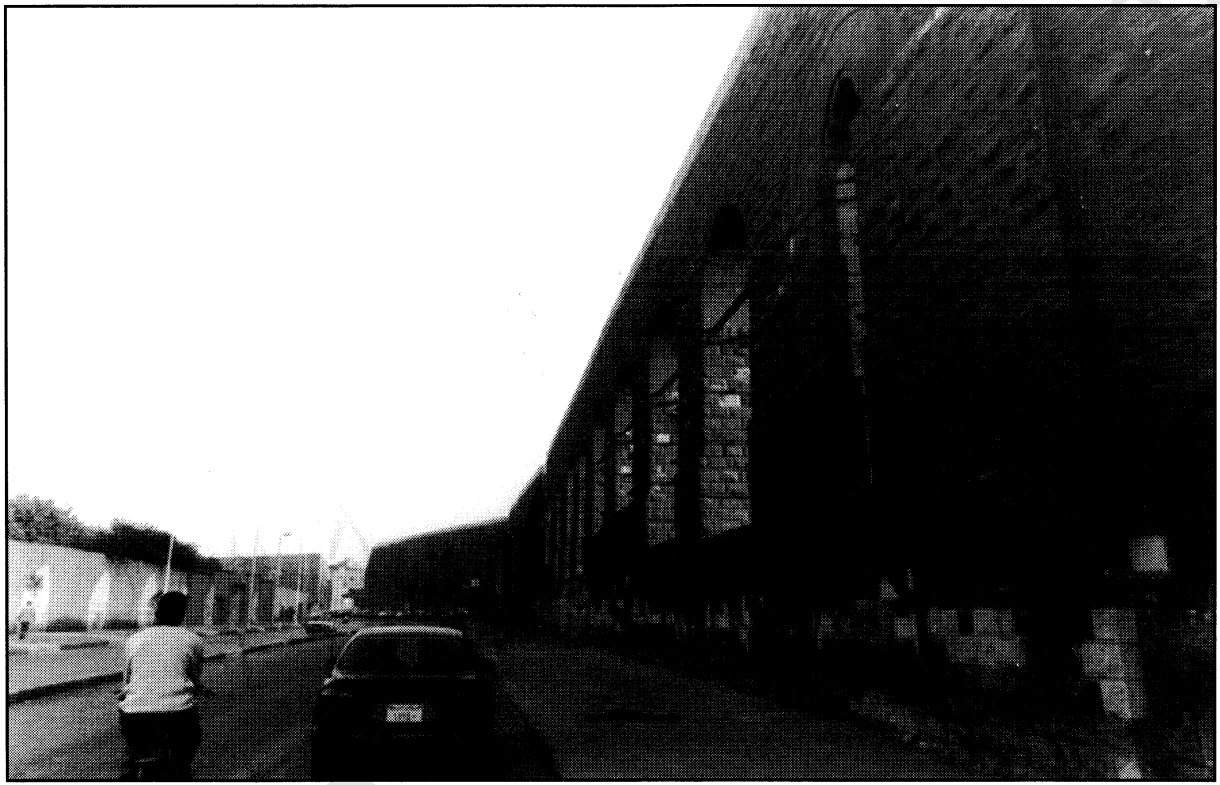

مجرى العيون من بدايته عند فم الخليج كان يعتبر الحد الشمالى للفسطاط .

هنا كانت ـ وقامت ـ مدينة القطائع عاصمة أحمد بن طولون الذى استقل بمصر عن الدولة العباسية .

جامع ابن طولون بمنارته غير التقليدية التى أقامها نسخة من منارة مسجد مدينة سامراء أو « سر من رأى » فى العراق .

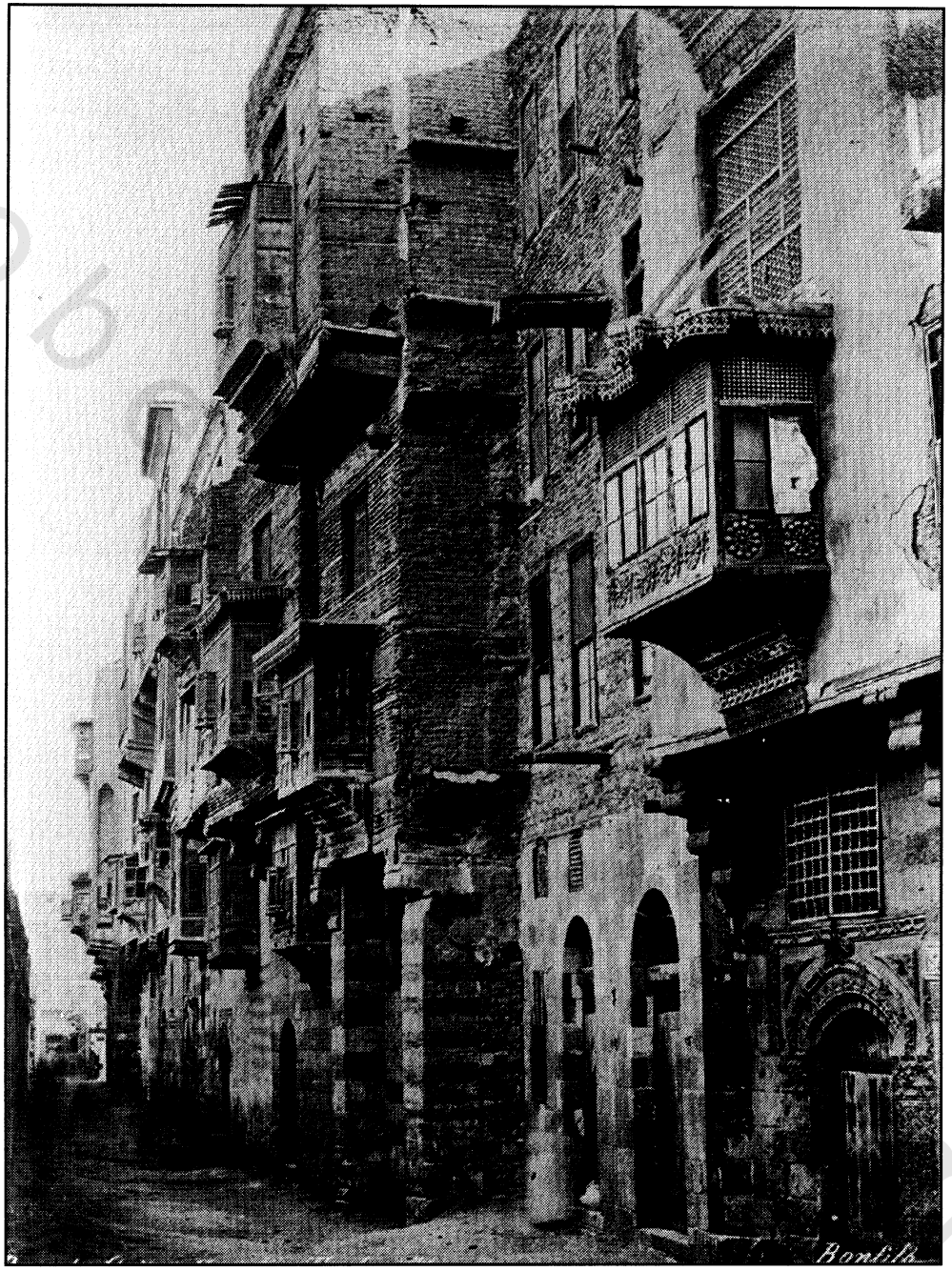

حى طولون وشارع الزيادة وبقايا المشربيات عام ١٨٧٠م .

ثم تحركت العاصمة شمالاً بإنشاء مدينة العسكر ثانية العواصم الإسلامية لمصر . . ثم جاء التحرك الثالث عندما أنشئت مدينة القطائع شمال مدينة العسكر ، وجاء التحرك الرابع شمالاً بإنشاء القاهرة الفاطمية .

وعلى الدارس أن يلاحظ أن التحرك نحو الشمال مستمر حتى الآن ـ فى العصر الحديث ـ وبداية هذا الاستمرار كانت مع إنشاء ضاحية مصر الجديدة ـ هليوبوليس ـ ثم عين شمس ، ثم مدينة نصر .

ويلاحظ أيضاً أنه منذ عصر الميلاد الأول ، كانت العاصمة الإسلامية بالقرب من النيل لضمان مصدر المياه . . ولكنها أخذت تتجه شمالاً باتجاه الشرق إلى حد ما ، ووضح هذا فى القاهرة الفاطمية . . فهل كان ذلك لأن النيل نفسه كان بقرب الفسطاط قبل أن يتحرك غرباً . . وأن خط المدينة كان باستمرار ناحية الشمال ، ولكن النهر نفسه كان هو الذى يتجه غرباً ، ويغير مساره ؟!

وظهرت مشكلة . .

إذ كلما ابتعدت العاصمة عن النيل ، كان لابد من تدبير مصدر للمياه . فكان مرة الخليج المصرى . وكان أخرى الخليج الناصرى . وكانت ثالثة البرك التى انتشرت داخل هذه العواصم الأربع : الفسطاط . . العسكر . . القطائع . . القاهرة ، وكان مرة رابعة فى مجرى العيون ، الذى كان ينقل المياه من النيل ، عند فم الخليج إلى القلعة وسكانها من الحكام : ولاة . . أو سلاطين أو مماليك ، أو باشوات . .

ونصل إلى القاهرة : رابعة عواصم مصر الإسلامية . .

مصر الفاطمية .. و القاهرة

فقد نزل جوهر الصقلى قائد الجيش الفاطمى ، الذى فتح مصر باسم الخليفة الفاطمى الرابع : المعز لدين الله . . نزل الى ساحل الفسطاط وقت الزوال من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شهر شعبان سنة سبع وخمسين وثلثمائة . . نزل بحرى الفسطاط فى الأرض التى يوجد فيها اليوم الجامع الأزهر وبيت القاضى وخان الخليلى

وبين القصرين وما جاورها من الأماكن التى بين الجبل و الخليج . وكانت هذه البقعة رمالاً فيما بين مصر الفسطاط وعين شمس التى تسمى الآن بالمطرية . . ويمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط إلى عين شمس فيما بين الخليج المعروف فى أول الإسلام بمصر بخليج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، والخليج المعروف باليحاميم لمروره بجوارها . . . و اليحاميم هو اسم الجبل الأحمر الكائن شرق العباسية . وعندما نزل جوهر الصقلى بهذه الأرض الرملية لم يكن بها بنيان غير البساتين ، وأماكن قليلة منها بستان الإخشيد محمد بن طغج المعروف بالكافورى . وكان هذا البستان شرقى الخليج ومحله الآن مابين جامع الشعرانى والسكة الجديدة « الموسكى » قريباً من قنطرة الموسكى، ممتداً من الجهه الشرقية إلى النحاسين ، وكانت مساحة هذا البستان ٣٦ فداناً .

بانى مصر .. رومى الأصل :

ولكن اللى بنى مصر لم يكن حلوانياً . . بل كان رومى الأصل !!

ذلك أن جوهر الصقلى هذا هو : أبو الحسن جوهر بن عبدالله القائد الرومى المعزى المعروف بالكاتب . وأصله مولى للمعز لدين الله أبى تميم معد العبيدى الفاطمى ، وكان من كبار قواد أستاذه المعز . ثم جهزه أستاذه المعز لفتح مصر بعد موت « الأستاذ» كافور الإخشيدى ، فملك جوهر مصر بعد حروب عدة . وتسلم مصر فى يوم الثلاثاء ١٨ شعبان ٣٥٨هـ . وفى جمادى الأولى عام ٣٥٩هـ شرع جوهر فى بناء القاهرة و الجامع الأزهر ، فتم بناء الجامع فى رمضان ٣٦١هـ .

أما المعز ـ أستاذ جوهر الذى يعود أصله إلى جزيرة صقلية ـ فهو أبو تميم معد ابن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدى عبدالله الفاطمى المغربى الملقب باسم المعز لدين الله ، و الذى تنسب إليه القاهرة المعزية ، المولود بمدينة المهدية يوم الاثنين ١١ رمضان عام ٣١٩هـ . وبويع بالخلافة فى المغرب « وقد زرت وأسرتى مدينة المهدية هذه خلال زيارتى لتونس عام ٢٠٠٠ وهى مدينة صغيرة ، ولكنها جيدة

التخطيط ، هواؤها نقى فهى ساحلية تعيش على الصيد وتكثر فيها البساتين ، وتطل على البحر من كل جانب » . .

المهم أن المعز جاء من المغرب إلى مصر ، واستلمها من قائده جوهر ابن جزيرة صقلية فى شهر رمضان عام ٣٦٢هـ ، وهو أول خليفة من بنى عبيد « الخلفاء العلويين» فى مصر .

ولمن لا يعلم كانت مساحة مدينة القاهرة عندما بناها جوهر الصقلى ٣٤٠ فداناً . منها ٧٠ فداناً بنى فيها القصر الكبير و٣٥ فدانا للبستان الكافورى، ومثلها للميادين . ويكون الباقى ٢٠٠ فدان تم توزيعها على الفرق العسكرية للجيش الفاتح، وتم تقسيمها إلى ٢٠ حارة توزع فيها جنود الجيش والقبائل التى أتت معه من المغرب ، وتم رسم هذه الحوارى العشرين بجانبى قصبة القاهرة ؛ أى شارع المعز لدين الله الآن .

وكانت القاهرة مدينة مربعة الشكل تقريباً ، ويصل طول ضلعها إلى ١٢٠٠ متر!!

●● ولم تكن القاهرة مدينة لعامة الشعب . بل كانت مقراً للحكام وللحكومة ولقادة الجيش و الوزراء . بل لم تكن عندما أنشأها جوهر قاعدة أو داراً للحكم والخلافة . .

كان يقصد ـ فى بادئ الأمر ـ أن تكون سكناً للخليفة الفاطمى وحرمه وجنده وخواصه . ومكاناً يتحصن فيه ويلجأ إليه عند الضرورة . وكانت المدينة متواضعة كعاصمة للدولة وللخلافة الفاطمية . واستمرت فتره مجرد مدينة عسكرية تشمل فقط قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة ، وخزائن المال و السلاح . ولم تصبح عاصمة للخلافة الفاطمية إلا بعد إنشائها بأربعة أعوام ، عندما انتقل إليها المعز لدين الله وأسرته ، بل واصطحب معه بقايا جثث أجداده من المغرب ، واتخذ مصر موطناً له فى عام ٩٧٣م ـ ٩٨٣م .

ولم يكن لسكان مصر أن يدخلوا القاهرة ـ المدينة الملكية ـ إلا بإذن مكتوب يسمح لحامله أن يدخل إليها من أحد أبواب القاهرة .

بل كان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون للمشاركة فى الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم قبل أن يصلوا إلى القصر ، فيمرون بين صفين من الجنود . . . وهكذا كانت أسوار القاهرة وأبوابها المحروسة جيداً تحجب الخليفة عن الشعب . .

بناء القاهرة .. المحروسة

وفى يوم ٦ يوليو عام ٩٦٩م ، بدأ إنشاء القاهرة . اختط جوهر الصقلى موقع القصر الذى قرر إقامته لمولاه الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، وذلك تنفيذاً لأوامر المعز . . وبنى جوهر سوراً خارجياً من الطوب اللبن على شكل مربع ، طول كل ضلع ١٢٠٠ متر . وكانت مساحة الأرض داخل هذا المربع حوالى ٣٤٠ فداناً . وخصص ٢٠٠ فدان لتوزيعها على الفرق العسكرية التى جاءت معه من المغرب ، وأخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التى تألف منها جيش جوهر « قطعة » أى «خطة » . فاتخذت قبيلة زويلة الخطه المعروفة باسمها إلى الآن حول باب زويلة . . وأخذت جماعة أو قبيلة البرقية القطعة أى الخطة التى تعرف للآن باسم الحارة البرقية واختطت الروم حارتين ، هما : البرانية و الجوانية بالقرب من باب النصر . .

كان ما بناه جوهر فى الأيام الأولى سوراً من اللبن جعله يدور حول قواته . . وجعل داخل هذا السور الجامع « الأزهر » و القصر ، وحفر خندقاً من الجهة الشمالية ليحمى قواته ومدينته من احتمال غزو القرامطة لمصر ، وكانوا ينافسون الفاطميين على الفوز بمصر .

وكانت القاهرة الأولى تحد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الذى أمامه . ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب من موقعه الحالى المواجه للفسطاط . ومن الشرق بموقع باب البرقية و الباب المحروق المواجهين للمقطم . ومن الغرب بموقع باب سعادة المطل أو المحاذى لخليج أمير المؤمنين ، وبعيداً عنه بحوالى ٣٠ متراً .

وقال المقريزى ـ فى خططه ـ إنه لم يبق من آثار هذا السور شىء فى عام ١٤٠٠م . وذكر أنه شاهد جزءاً طويلاً من هذا السور قائماً على بعد ٥٠ ذراعاً من السور ، الذى

بناه صلاح الدين فى المنطقة الواقعة بين باب البرقية ودرب بطوطة حتى دمرت عام ١٤٠٠ ـ ١٤٠١م .

كان هذا إذًا هو السور الأول الذى أقيم حول القاهرة .

أما السور الثانى للقاهرة ، فقد بناه أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى عام ١٠٨٧م خارج السور الذى بناه جوهر ، وليس على أساسه ، وكان سور الجمالى من اللبن للجدران ، ومن حجر منحوت للأبواب و الأبراج .

والسور الثالث بدأ إقامته صلاح الدين الأيوبى عام ٥٦٦هـ ، عندما كان وزيراً للخليفة العاضد لدين الله ، آخر الخلفاء الفاطميين . فلما استولى صلاح الدين على الحكم عام ٥٦٩هـ ـ ١١٧٣م ـ ١١٧٤م ، وصار سلطاناً ندب للعمل فى السور الطواشى بهاء الدين قره قوش الأسد . فبناه بالحجارة كما عرف عنه . . وبدلاً من أن يحيط القاهرة وحدها بهذا السور ، قرر أن يحيط به قلعة الجبل والقاهرة والفسطاط . . ولكن صلاح الدين توفى قبل أن يتم كل ذلك .

●● وكان للقاهرة ٨ أبواب ، لكل جانب من أجنابها الأربعة بابان .

ففى الجنوب باب زويلة وكان فى الأصل بابين بنتهما قبيلة زويلة ، وهى من قبائل البربر ، وكان البابان عند مسجد ابن البناء ثم باب الفرج . .

وفى السور الشمالى : باب النصر ، وباب الفتوح بجوار مسجد الحاكم بأمر الله آخر شارع المعز الآن . .

وفى الجهة الشرقية كان هناك باب القراطين المحروق وباب البرقية ، وكانا يطلان على تلال المقطم . .

أما فى الجهه الغربية أى فى الجهة المطلة على الخليج الكبير ، فكان هناك باب سعادة وهو أول أبواب السوق الغربى ، وباب القنطرة أو الجسر . .

الآن أصبحت حدود القاهرة تمتد مع مجرى النيل حوالى ٤٠ كيلو متراً من حلوان جنوباً إلى فم ترعة الإسماعيلية فى شبرا الآن شمالاً !!

وحتى نعرف حجم هذه الأسوار والأعمال على حقيقتها ، نقول إن بدر الجمالى هدم السور الغربى عام ٤٨٦هـ ، وبنى سوراً جديداً عرضه ١٠ أذرع ، وبلغت مساحة القاهرة عندها ٤٠٠ فدان أى أضاف الجمالى للقاهرة ٦٠ فداناً .

وعندما شرع صلاح الدين الأيوبى فى بناء سوره عام ٥٦٦هـ ، كان هدفه إحاطة القاهرة ومصر أى الفسطاط والقلعة ، بهذا السور ، وبناه بالحجارة ـ بسبب تطور الأسلحة ـ وجعل خلفه خندقاً وبلغ طول السور الذى بناه ٢٢ ألف متر أى ٢٩٣٠٢ ذراعاً .

وبقيت القاهرة هكذا إلى عام ١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م عند وصول حملة بونابرت . . فقاسوا سور المدينة فوجدوه ٢٤ ألف متر . وبه ٧١ باباً ، منها ما هو داخل القاهرة فى السور القديم ، ومنها ما هو فى السور المحيط بها . ولم تتغير مساحة القاهرة فى القرن التاسع الهجرى ، وإن ظل أطول شوارعها هو ذلك الواصل بين بوابة الحسينية ، إلى بوابة السيدة نفيسة وطوله ٤٦١٤ متراً . وكانت مساحة المدينة القديمة بما فيها الميادين و الحارات و الشوارع و المبانى ١٩٤٨ فداناً ، منها ١٧١٦ فداناً هى المساحة المشغولة بالمبانى و المنازل ، ومنها ٢٣٢ فداناً مشغولة بالشوارع والحارات والميادين .

●● وهنا يجب أن نصحح خطأ يقع فيه الناس ؛ ففى منطقة الموسكى عند تقاطعها مع شارع بورسعيد « الخليج المصرى » كان هناك شارع يطلقون عليه خطأ : شارع بين الصورين . . بينما الصواب هو بين السورين ؛ لأن الشارع بوضعه الحالى يقع بين السورين : القديم الذى بناه بدر الجمالى والسور الأخير الذى بناه صلاح الدين الأيوبى ! !

وأصبحت القاهرة .. مدينة للشعب

عرفنا إذًا أن القاهرة لم تكن مدينة للعامة ، أو للشعب ، بل كانت مدينة للحكام . . للسلاطين وجنودهم وقوادهم . بينما كانت الفسطاط هى المدينة الشعبية أو هى العاصمة الفعلية وذلك خلال الحكم الفاطمى . . وكانت القاهرة هى المدينة الحصن التى يتحصن بها الحاكم ، ولهذا حصنوها وبنوا حولها الأسوار وأقاموا الأبواب

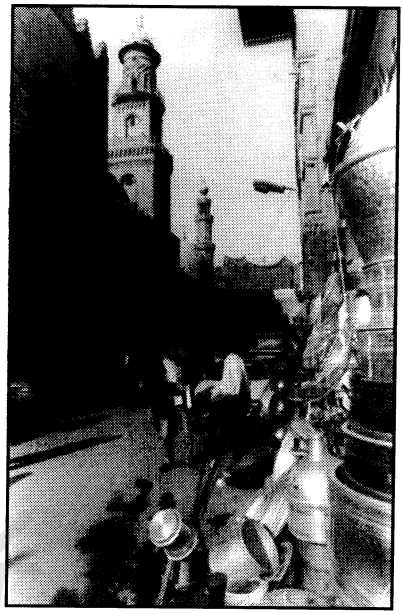

مجموعة قلاوون بشارع المعز تزين الشارع التاريخى .

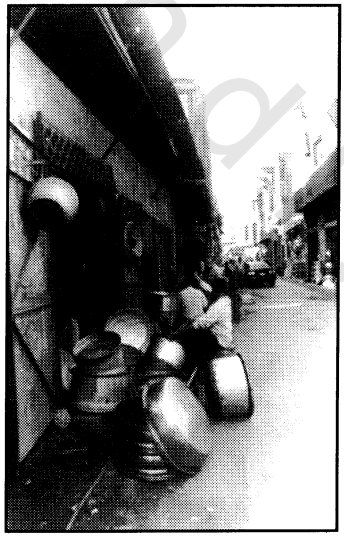

شارع النحاسين أحد أجزاء شارع المعز لدين الله .

obeikandl.com

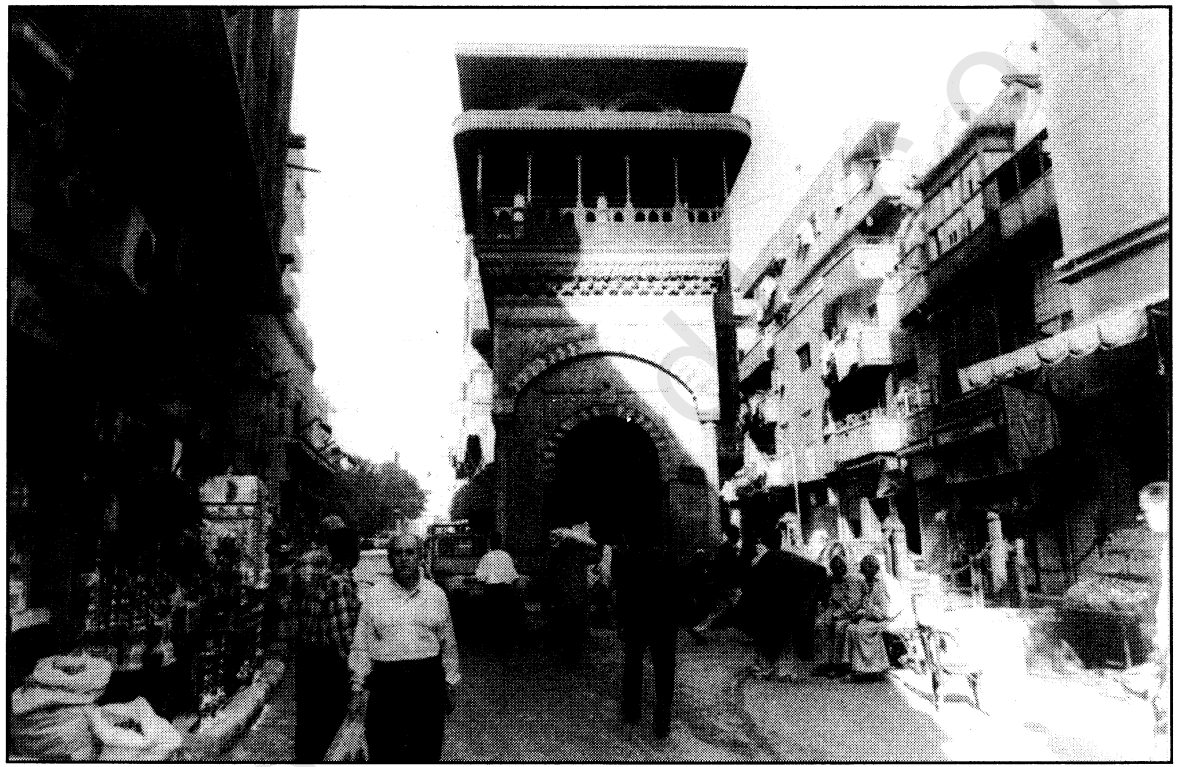

سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا من أجمل أسبلة القاهرة كلها أقامه عاشق الآثار الإسلامية الذى رمم وأحيا معظم المبانى الإسلامية ، وفى مقدمتها الجامع الأزهر .

والأبراج . ولم يسكن الناس بالقاهرة إلا فى أواخر الحكم الفاطمى ، عندما ضعفت سلطة الخلفاء . وعندما انتهى حكم الفاطميين ، سمح صلاح الدين والأيوبيون للناس بالإقامة فيها والبناء . وأخذ رجال الدولة يبنون حولها البساتين والقصور . وبمضى الزمن بنى الناس فى الفضاء ، وفى أرض البساتين ، وحول البرك والأراضى التى انسحب منها النيل واتجه غرباً . . وهكذا أخذت القاهرة فى الاتساع . .

وربما يكون الناصر محمد بن قلاوون هو أكبر المنشئين بسبب حبه للبناء . وسمح للناس بأن يقيموا بيوتهم حول الخليج الناصرى ، الذى حفره قلاوون حتى أصبحت القاهرة فى عصره ، يحدها جبل المقطم من الشرق إلى المطرية . . إلى أثر النبى جنوباً . . وكثرت البساتين حول القاهرة ، وعمرت بالميادين شمالاً مثل منية السيرج وشبرا .

●● وقسمت القاهرة ـ مثل الفسطاط ـ إلى أثمان وأخطاط ، وكل خطة تحتوى على شوارع ، والشوارع بها دروب وحارات وعطف ، وأغلب الحارات والعطف غير نافذة إلا إلى الدرب ؛ أى كانت القاهرة عبارة عن عدة قرى متلاصقة .

وكانت القاهرة فى أواخر أيام المماليك مدينة غير نظيفة ، وكانت القاذورات تلقى بجوار الحارات ، وعلى أبواب الأزقة . وما ينشأ عن الهدم يلقى بجوار باب المدينة ليصير تلالاً ، إذا نسفتها الرياح تكون منها فوق المدينة سحابة تراب كريه الرائحة . فتنتشر الأمراض : المجذوم والأبرص والمجدر والأعمى ، وكانت المدينة محاطة بالتلال ضيقة المسالك ، مبنية على غير انتظام لا تدخلها الشمس ولا الرياح ، فانتشرت الأمراض .

كانت القاهرة مدينة بلا صحة !! وكانت المقابر تنتشر وسط المدينة : مقبرة السيدة زينب و القاصد . بل دفن الناس موتاهم أحياناً فى منازلهم ، وفى المدارس والمساجد . .

وكان لكل حى ، أو منطقة نشاطها التجارى . .

فكان أكثر ما يباع فى الجمالية ما يرد من بلاد الشام و الحجاز وحضرموت ، وكان يباع فى الحمزاوى الجوخ و الحرير وما يرد من الهند وبلاد الإفرنج ، وكان خان الخليلى يباع فيه ما يرد من تركيا .

أما المأكولات و العطارة فكانت تنتشر فى كل المناطق .

وكان لأهل البلد أسواق وقتية ، كل سوق فى يوم معين : سوق الجمعة . . الاثنين . . الخميس ، ومنها ما يكون كل يوم « بعد العصر » كسوق العصر . .

كانت إذًا الصوره قاتمة كما قدمها لنا على باشا مبارك للقاهرة فى خططه التوفيقية فى أواخر العصر التركى المملوكى . وكانت القاهرة ـ فى هذا العصر ـ مقسمة إلى ٦٣ حياً أو حارة ، وكانت لكل حارة أو حى بوابة تتقدم مدخل الشارع المؤدى إليها ، وظل باب حى المبيضة الذى أنشئ عام ١٠٨٣هـ ـ ١٦٧٣م قائماً حتى أواخر القرن ١٩ .

وكان لكل حى شيخه الذى كان كثيراً ما يكون هو شيخ الطائفة الحرفية نفسه التى تسكن معظم أجزاء الحى . . وكانت وظيفة شيخ الحارة هى واسطة الاتصال بين السلطة والشعب . ومن ثم إذا حدثت أزمة ولتكن حول الأسعار أو التموين ، كان الباشا أى الوالى العثمانى يفوض أغا الانكشارية لحل الأزمة ، فكان يعقد الاجتماعات لشيوخ الطوائف الحرفية ، ويتفق معهم على إعداد قائمة بالأسعار المقترحة . . وكان دور شيوخ الحرف هو إقناع أبناء الحرفة التابعة لهم على السير على ما تم الاتفاق عليه مع السلطة .

القاهرة .. أيام بونابرت

ونصل بالعاصمة المصرية إلى الصورة التى كانت عليها القاهرة أيام الحملة الفرنسية ، التى غزت مصر بقيادة بونابرت عام ١٧٩٨م . .

كانت القاهرة باستثناء بولاق ومصر القديمة لا تزيد مساحتها على ٧٣٠ هكتاراً . والهكتار مقياس فرنسى يساوى ١٠ آلاف متر . وبداخل هذه المساحة كانت توجد مناطق واسعة خالية من البناء مثل البرك ، التى كانت تغمر بالمياه وقت فيضان النيل ، وتصبح بقية العام أراضى واسعة معشبة ومتربة . و كانت أكبرها بركة الأزبكية وكانت مساحتها ١٩ هكتاراً ، وبركة الفيل ومساحتها ١٤ هكتاراً . وكانت البساتين المنتشرة

بالذات فى الجانب الغربى لخليج أمير المؤمنين ١٦,٤ هكتار ، والمقابر غرب المدينة والتى كان عدد كبير منها يستخدم للدفن حتى أيام الحملة الفرنسية وكانت مساحتها ٣٠,٤ هكتار ، بالإضافة إلى الميادين والرحاب الواسعة فى سفح المقطم مثل الرميلة وقره ميدان « ميدان القلعة » ١١,٥ هكتار . . ويبلغ مجموع مساحة هذه المواضع نحو ٧٠ هكتاراً .

وبذلك . . فإن المناطق المبنية بالفعل داخل القاهرة كانت تبلغ ٦٦٠ هكتاراً تحوى الشوارع والأزقة وبعض الرحاب والخليج . وكان حى الحسينية ٢٦ هكتاراً بنسبة . . ٣,٩٪ من المساحة الكلية ، بينما كانت القاهرة الفاطمية مساحتها ١٥٣ هكتاراً بنسبة ٢٣,٣٪ . . وكان الحى الجنوبى الممتد من باب زويلة حتى طولون ٢٦٦ هكتاراً أى ٤٠,٣٪ من المساحة الكلية ، بينما كان الجزء الواقع فى البر الغربى للخليج مساحته ٢١٥ هكتاراً أى ٣٢,٦٪ . .

وكان أكثر أحياء القاهرة نشاطاً أيام الفرنسيين هى الأحياء الواقعة داخل الحدود الفاطمية ؛ أى المنطقة التى تحتوى الأسواق الرئيسية وأكبر عدد من الوكالات وأكبر تكدس للمنشآت الدينية وذات الطابع الاجتماعى . وأصبحت المناطق المتاخمة لبركة الفيل هى الحى الرئيسى لسكن الأرستقراطية القاهرية فى العصر العثمانى . وكان الشاطئ الأيمن للخليج الذى تحده القاهرة الفاطمية من الشمال وحى القلعة من الشرق بين سنتى ١٦٥٠م و ١٧٥٠م هو المكان المفضل لسكنى الغالبية العظمى من بكوات وأمراء القاهرة .

ميادين القاهرة

لما زالت الدولة الفاطمية كان فى القاهرة ١٠ ميادين ، وبقيت كذلك خلال العصرين الأيوبى والمملوكى ، ولكن فى آخر العصر العثمانى ـ المملوكى لم يكن بالقاهرة سوى ميدانين ، هما : ميدان الأزبكية فى غرب القاهرة ، وميدان قره ميدان فى قبلى القاهرة ، تحت قلعة صلاح الدين . ويقول المقريزى إنه فى آخر هذا العصر انعدمت الميادين التى كانت تصل إلى ٤٩ ميداناً ورحبة . .

ولما سمح للناس بالبناء خارج القاهرة ، اتجه الناس للبناء فى البساتين التى كانت موجودة خارج القاهرة من جهاتها القبلية والغربية والبحرية . وكانت هذه المناطق عبارة عن قصور وبساتين تتخللها الميادين .

●● ففى الجهة القبلية ، كان هناك ميدان ابن طولون وميدان الملك العادل أمام قلعة الكبش على بركة الفيل . وميدانا الناصر محمد بن قلاوون . . الأول المعروف بميدان المهارة ، والآخر المعروف بالميدان الناصرى . وكانا فى الأرض الواقعة تجاه قصر العينى و القصر العالى ، كما يقول على باشا مبارك .

●● وفى الجهة البحرية كان هناك ميدان قراقوش ، الذى يوجد فى بعض مساحته جامع الظاهر بيبرس .

ولما صارت مصر ولاية عثمانية ، احتكر الناس أرض البساتين والميادين والرحب ، وبنوا فيها . ولما تولى محمد على باشا حكم مصر بدأ تنظيم الحارات و الشوارع القديمة ، وفتحت الشوارع والحارات وعملت الميادين الجديدة ، فصار فى القاهرة وخارجها ١٦ ميداناً .

وكانت القاهرة تحت حكم الحملة الفرنسية عليها بوابات على الدروب والحارات والعطف . وكل بوابة كانت تغلق عند العشاء ، ينام خلفها بواب بأجرة من أهلها . ولا يتأخر أحد بعد العشاء إلا للضرورة مع تنبيهه على البواب حتى إذا حضر يفتح له . . وكان الأهالى يصفحون الأبواب بالحديد ، ويسمرونها بالمسامير الكبيرة ، ويجعلون بأكتاف الباب السلاسل المتينة . ويجعلون للباب الضبة والضبتين فى الخارج والداخل . ويزيدون من الداخل الترباس وهو خشبة طويلة ينقرون لها بالحائط نقراً تبيت فيه ، وكانوا يتفننون فى الحيل لمنع الضبة من الفتح بعمل الدواسيس وشق المفاتيح ووضع السواقط .

ولم يكن هناك طراز معين للبيوت . وكان الناس يبنون على هواهم . كل حسب حاجته ، ووجاهته . مثلاً كان بيت الشرقاوى مساحته ٤ أفدنة « ١٧ ألف متر » وكثيراً

ما كان موجوداً مثله فى سوق السلاح . وسويقة العزة . . وفى منطقة عابدين . وللأسف تحولت تلك البيوت الكبيرة إلى أحواش يسكنها العامة . وأغلب الأحواش أصلها بيوت فاخرة دمرتها الأحداث ، وكان فيها أماكن لتخزين الحاصلات والحبوب . . والاصطبلات ، وكان بكل بيت بئر أو ساقية ، وكان به أيضاً الطاحونة لتجهيز الحبوب وطحنها . .

الخنادق .. تحمى القاهرة

ولأن المدينة كانت هى الحصن الذى يتحصن داخله الحاكم ، كانت القاهرة أيام المعز لدين الله الفاطمى تحيط بها ٣ خنادق .

* خندق فى الناحية القبلية وهو الذى حفره عمرو بن العاص ، وكان شرقىَ قبر الإمام الشافعى .

* وخندق اليحاميم وأوله الجبل الأحمر المسمى باليحاميم .

* وخندق غرب المدينة وهو الخليج المعروف .

ولما تم بناء السور حولها تم حفر الخندق الرابع بحرى القاهرة ، فصارت العاصمة محاطة بأربعة خنادق . وأدخل فى السور بستان الإخشيد وميدانه ، وجعل دير العظام وقصر الشوق من ضمن القصر الكبير ، فكان البستان بين القصر والخليج وصار الخليج خارجه . وكان البستان كبيراً جداً ومحله الآن حارات اليهود والخرنفش ويمتد إلى شارع النحاسين . وأنشأ هذا البستان الأمير أبوبكر بن محمد بن طغج ابن الإخشيد ، وكان يطل على الخليج واعتنى به وجعل له أبواباً من حديد . وكان يقيم به أياماً عدة ، واهتم به بعده أولاده : الأمير أبو القاسم والأمير أبو الحسن على أيام إمارتهما بعد أبيهما .

ولما استقل بعدهما بحكم مصر أبو المسك كافور الإخشيدى كان كثيراً ما يتنزه به . ويواصل الركوب إلى الميدان الذى به ، وكانت خيوله بهذا الميدان . ولما آلت مصر للفاطميين صار الميدان متنزها لهم ، وكانوا يصلون إليه من خلال سراديب أى أنفاق

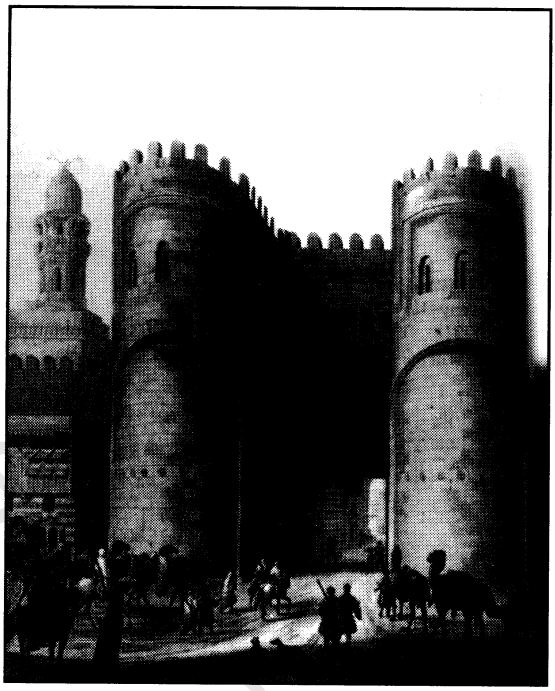

باب الفتوح فى القرن ١٨ بريشة باسكال كوست .

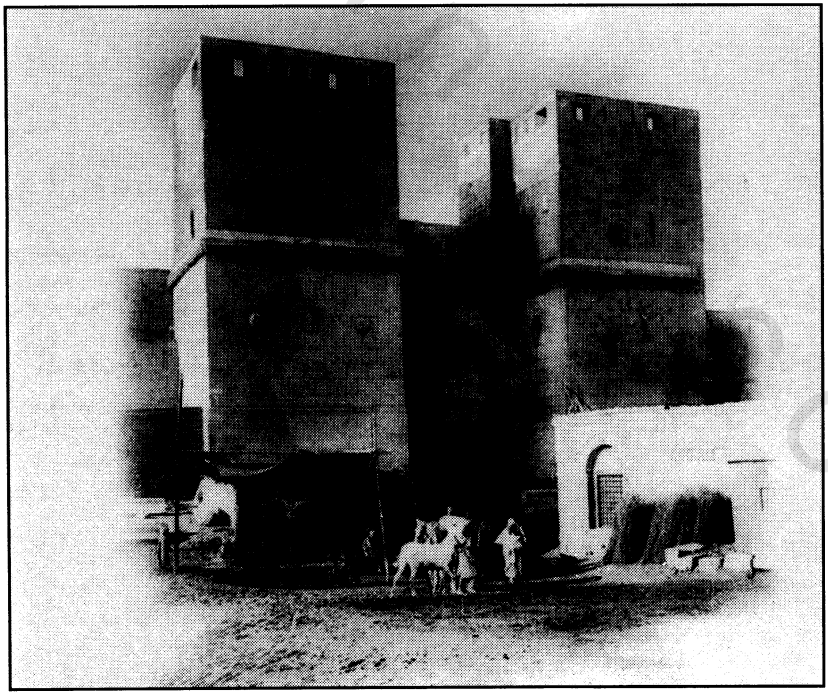

باب النصر من الخارج من ناحية الحسينية كما كان يبدو خلال الحملة الفرنسية على مصر .

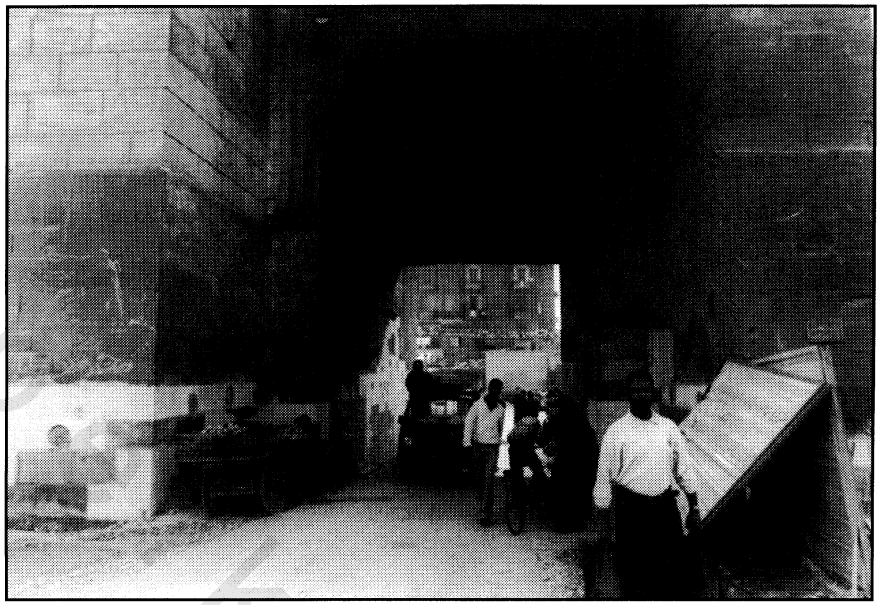

باب النصر من داخل القاهرة الفاطمية بينما فى الخارج تبدو بدايات حى الحسينية حيث كانت تعود الجيوش المنتصرة .

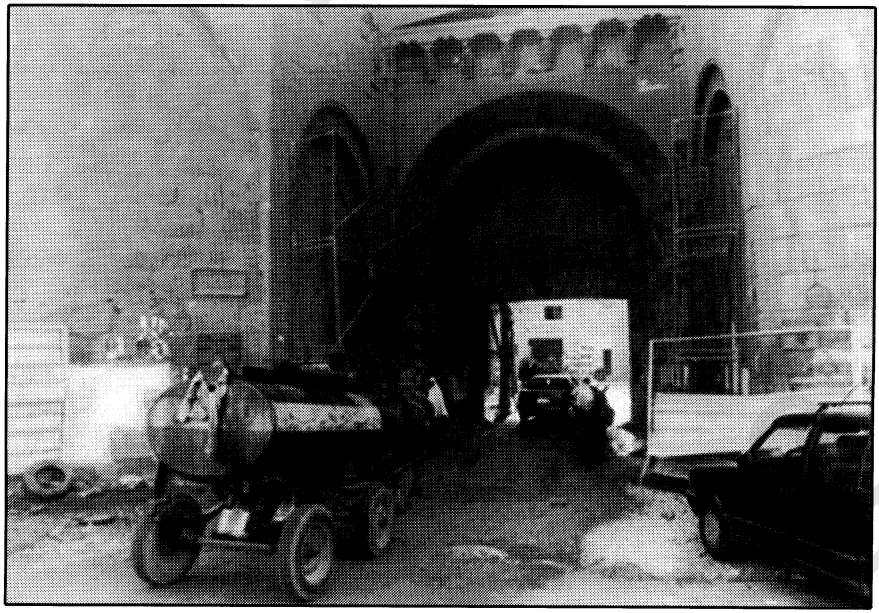

باب الفتوح تحول إلى باب لخروج السيارات وعربات الكارو إلى الحسينية بعد أن كان باباً لخروج الجيوش للفتح . . وظل باب النصر باباً للدخول إلى القاهرة وكان طريقاً لعودة الجيوش المنتصرة .

مبنية تحت الأرض ينزلون إليها من القصر الكبير ، ويسيرون فيها بالدواب ـ تخيلوا ـ إلى البستان ومناظر اللؤلؤة بحيث لا تراهم الأعين ، فلما زالت الدولة الفاطمية حكر هذا البستان وتجددت فيه المبانى عام ٦٥١هـ . .

أبواب القاهرة ..

مادامت هناك أسوار . . كان لابد من وجود أبواب رئيسية على هذا السور أوذاك .

فقد كان بالسور الذى بناه جوهر الصقلى عند بناء القاهرة عدة أبواب . كان فى الجهة البحرية باب النصر القديم ، وكان بجوار زاوية القاصد ، وباب الفتوح القديم وكان بجوار حارة بين السيارج التى فى خارج الباب ، وكان مكان جامع الحاكم بأمر الله خارج السور . .

وكان بالجهة القبلية بابان متلاصقان يسميان بابى زويلة : أحدهما بجوار زاوية سام بن نوح المجاورة لسبيل العقادين ، والآخر بجواره . وكان أحدهم وهو المجاور للزاوية المذكورة يسمى باب القوس ، وهو الباب الذى دخل منه المعز عند قدومه إلى مصر ، واستعمل الناس هذا الباب وهجروا الباب الآخر ولهذا تمت إزالته .

●● وفى الجهة الشرقية كان هناك الباب المحروق القديم ، وكان فى غير موضعه الجديد . . وباب البرقية وكان خارج حارة البرقية التى اختطها جماعة من أهل برقة وهى التى تعرف الآن بالدراسة . وبقرب موضعه اليوم الباب المعروف باسم باب الغريب ، وكان هناك باب ثالث يغلب على الظن أنه كان بين هذين البابين .

●● وفى الجهة الغربية كان هناك باب سعادة ومحله بجوار الحد القبلى لسراى الأمير منصور باشا ، بقرب جامع إسكندر الذى هدم ، وتحول إلى ميدان أمام منزل منصور باشا . وكان هذا الباب على رأس زقاق هدم بين ما هدم من الأبنية لإنشاء هذا الميدان . وكان هذا الزقاق من درب سعادة . وباب آخر يسمى باب القنطرة لكونه بنى فوق القنطرة ، التى بناها جوهر الصقلى على الخليج ليمر منه الناس من باب مرجوش إلى

باب الشعرية ، ثم هدم بعد عام ١٢٧٠هـ لخلل وقع به . . وكان هناك باب ثالث يعرف بباب الفرج تمت إزالته وكان موقعه بعد حمام المؤيد وبجواره . وباب رابع يعرف بباب الخوخة كان بشارع قبو الزينية ومحله أمام جامع الشيخ فرج .

محمد على .. و القاهرة المحروسة

عانت القاهرة الكثير ، وزادت حالتها سوءاً سنوات عديدة ، حتى قبل وصول قوات بونابرت إلى القاهرة ، بسبب الصراع الرهيب بين إبراهيم بك ومراد بك اللذين كانا يتنافسان على السلطة فى مصر ـ بسبب ضعف الوالى ، أو الباشا التركى . . وبالتالى لم يكن أحد يفكر فى تطوير القاهرة ، أو يواجه مشاكلها الصحية والتعميرية . وجاءت حملة بونابرت عام ١٧٩٨م ، ورغم من رافقها من علماء وأطباء ومهندسين . . . إلا أنه بسبب الحروب والثورات لم تنعم القاهرة بشىء يذكر من التعمير و التطوير . واستمر هذا الوضع ما يقرب من عشرين عاماً بسبب الصراع ومحاولة الاستيلاء على السلطة ، إلى أن تمكن محمد على باشا من السيطرة على الأمور عام ١٨٠٥م . ولكن محمد على عانى الكثير بسبب ثورات الجند ، ومعاركه مع المماليك . ولكن لأن الرجل كان له مشروعه الطموح لتطوير البلاد فى كل المجالات ، بدأ يعيد النظر فى عاصمة بلاده ، وربما يكون قراره عام ١٨١٦م بعمل حصر للمبانى الآيلة للسقوط ؛ تمهيداً لهدمها محافظة على الأرواح ، هو أول قرار للاهتمام بالقاهرة .

فقد أمر محمد على فى ذلك العام بهدم المساكن والدور التى يخشى من تهدمها ، وأن يعاد تعميرها ، خاصة عند بركة الفيل وجهة الحبانية وبولاق على النيل . كما أمر فى السنة التالية بكنس الأسواق ومواظبة رشها بالماء ، وإيقاد القناديل على أبواب البيوت . وأن يخصص لكل ثلاثة حوانيت قنديل ، وكان محتسب القاهرة يتابع تنفيذ هذه الأوامر بنفسه .

وابتداء من عام ١٨٢٠م ، بدأت أعمال نظافة عامة فى المدينة ، انعكست على الصحة العامة ، حيث ندرت الأوبئة بعد هذه السنة ، ويعد الوباء الذى حدث عام

١٨٣٥ استثناءً من ذلك . ومن أجل ذلك عمل محمد على باشا على تركيز الصناعات الأساسية التى بدأ بإدخالها فى منطقة السبتية شمال شرق بولاق . كما أزال الأنقاض التى كانت تحيط بالقاهرة فى شمالها ، وفى غربها ، والتى كانت تعد مواطن للقاذورات، والتى كانت تحمل سمومها إلى المدينة عند هبوب أى عاصفة ، وتمكن باستخدام الأتربة المنقولة من هذه الأنقاض أن يبدأ فى عام ١٨٢٧م فى ردم كثير من البرك ، التى كانت تنتشر فى القاهرة . .

وفى عام ١٨٢٩م أزيل الكثير من التلال « الكيمان » التى كانت ملاصقة للنيل شمال قصر العينى ، والتى كانت تعرف باسم : تل العقارب ، ولاحظوا الاسم الذى كان يدل على مدى خطورة هذه التلال ، وكانت مساحتها حوالى تسعة أفدنة . . كما تمت إزالةالتلال الواقعة بين حى الناصرية ومنطقة جاردن سيتى الحالية ، وكانت مساحتها ٣٨ فداناً وتمت زراعتها بأشجار الزيتون . وكانت هناك تلال بجوار قنطرة الليمون «كوبرى الليمون فى باب الحديد حالياً » وكانت تسد الطريق إلى شبرا ، وتم تحويل هذه المنطقة إلى متنزه .

واستمرت أعمال تعمير وتجميل القاهرة فى عصر محمد على ، ففى عام ١٨٣١م صدرت الأوامر بتعمير أراضى الخرائب سواء كانت مملوكة للأفراد ، أم موقوفة ، وذلك بعد أن يتم تحديد مساحتها .

على أن أول عمل منظم لتجميل القاهرة وتعميرها بدأ عندما أصدر محمد على يوم ٨ ذى الحجة عام ١٢٥٩هـ ـ ديسمبر ١٨٤٣م أمراً بإنشاء مجلس للإشراف على تزيين وتجميل القاهرة ، وتعديل طرقها ، أسوة بما حدث فى الإسكندرية . . أى إن تجميل الإسكندرية كان سابقاً على تجميل العاصمة !!

المهم كان مجلس تجميل القاهرة مؤلفاً من :

١ـ رشيد أفندى مفتش الأبنية الأميرية .

٢ـ لينان دى بلفون مهندس القناطر . .

٣ـ المهندس مصطفى بهجت رئيس قسم الهندسة بديوان المدارس ، وهو من أوائل المهندسين المصريين ، الذين أوفدهم الباشا ضمن البعثات العظيمة التى أوفدها إلى أوروبا .

ويذكر لمحمد على باشا أن فى عهده بدأ ترقيم وتسمية شوارع القاهرة ، وذلك عام ١٢٦٤هـ ـ ١٨٤٧م ، بصدور الأمر الصادر بذلك إلى « مجلس تنظيم المحروسة » . . أى كان بجوار لجنة تجميل القاهرة ، كان هناك « مجلس تنظيم المحروسة » ؛ أى هو البداية الحقيقية لإدخال نظام البلديات إلى مصر .

وفى العام نفسه ـ ١٨٤٧م ـ بدأت عمليات واسعة لتطوير وتعديل شوارع المحروسة . وبدأ هذا العمل التعميرى بتوسيع شارع من باب الحديد إلى الظاهر ، وهو الذى يوصل الى طريق السويس ، وكذلك بدأت أعمال توسيع شوارع درب الجماميز . . باب الخلق . . المشهد الحسينى . وتم غرس الأشجار فى هذه الشوارع وغيرها ، وتمهيد طريق عصرى بين مصر (!!) وشبرا ليصبح هذا الشارع أجمل شوارع المحروسة ، إذ تم شقه وتمهيده فى خط مستقيم ليصبح أوسع شوارع مصر ، وأكثرها استقامة ، وكان يصل بين العاصمة وقصر محمد على فى شبرا . وعلى جانبيه تم غرس أشجار الجميز واللبخ ، مع تعيين عمال مهمتهم رش الشارع بالمياه مرتين فى اليوم ، لأنه أصبح أجمل طريق للنزهة فى مصر كلها .

وفى العام نفسه « ١٨٤٧م » بدأ ردم مساحات من بركة الأزبكية تمهيداً لتحويلها إلى متنزه عام ، كما غرست الأشجار على حافتى طريق الرميلة وقره ميدان تحت القلعة .

وقبل ذلك بعام أى فى ١٨٤٦م ، أصدر محمد على باشا أمراً إلى ديوان المدارس فى ٩ ربيع الثانى ١٢٦٢هـ يقول « حيث إنه سبق التنبيه بتوسيع أزقة وفتح شوارع الموسكى ، وقطع كوم الشيخ سلامة وشارع بولاق ، وفم الخليج ، وشارع القلعة ، وغير ذلك من الشوارع اللازم فتحها وتوسيعها لراحة العباد من ضيق الأزقة وتزيين البلدة . . لذلك

يلزم شراء الأماكن التى تدخل فيها من أربابها وخصم أثمانها من جانب الميرى !! أى نزع ملكيتها وتعويض أصحابها عنها . .

وكان لمحمد على باشا فضل التفكير فى السكنى على شط النيل ؛ فقد أقام لابنته زينب قصراً كبيراً هو قصر النيل الذى حوله الوالى سعيد باشا بعد هدمه وتطويره الى قصر فخم ، أصبح بعد ذلك مقراً للجيش ؛ أى ثكنات قصر النيل التى ظلت باقية إلى أن تم هدمها فى أواخر الأربعينيات من القرن العشرين ؛ ليقام مكانها فندق هيلتون النيل ومقر جامعة الدول العربية ، ومبنى الاتحاد الاشتراكى . . . وهكذا .

ثم يأتى دور إبراهيم باشا القائد العظيم ابن محمد على ، الذى طلب من المهندس بونفور إزالة الأكوام والأنقاض الواقعة بين النيل وبولاق ومصر والفسطاط ، وطلب منه إنشاء متنزهات خاصة مكانها ، فتجلت الرياض الفيحاء تزينها الأشجار الباسقة ـ كما يقول على مبارك فى خططه ـ واختفت تلال حى الناصرية والظاهر والفجالة ؛ وكانت تلقى الأنقاض فى البرك المجاورة مثل بركتى الرطل والطبالة وغيرهما ، حتى تخلصت القاهرة من هذه البرك ، وحلت محلها البساتين والمزارع ، وجفت أكثر البرك والمستنقعات التى كان الفيضان وعدم العناية بها يحولها إلى مستنقعات تضر بالصحة العامة .

القاهرة الحديثة .. من صنع إسماعيل :

من المؤكد أن « مصر المحروسة » تدين بتحديثها وتطويرها إلى الخديو إسماعيل . فهو بحق صاحب الطفرة الهائلة ، التى عاشتها العاصمة على مدى قرن كامل . .

إذ عندما تولى إسماعيل حكم مصر فى ١٨ يناير ١٨٦٣م بعد وفاة عمه سعيد باشا ، هاله ما انحدرت إليه حال البلاد ، بل وأحزنه أن يجد عاصمة بلاده لا تزيد على مدينة صغيرة تمتد من سفح المقطم والقلعة ، وتنحدر غرباً لتنتهى عند ميدان العتبة الخضراء ، وتحيط بها ، وتتخللها ، مجموعة من الخرائب والمستنقعات ، وأحزنه توقف عجلة الإصلاح التى بدأت فى عهد جده محمد على ، بل التى أفنى فيها حياته .

كانت القاهرة تبعد عن شط النيل بأكثر من أربعة كيلومترات . . تكثر فيها البرك والمستنقعات والهضاب والتلال . فى المنطقة ـ من ميدان العتبة الحالى إلى شاطئ النيل عند بولاق ـ وكانت تلك البرك مصدراً خطيراً للناموس ، حتى أن الملاريا ضربت العاصمة فى السنة الأولى من حكم إسماعيل ، وفتكت بالكثير من السكان . .

ولم يكن بالقاهرة أى نظام لتوزيع مياه شرب صحية ، ولا أى نظام للصرف الصحى . وكانت المخلفات تجمع فى المجارير فتتسرب مياهها إلى البرك ، التى يحصل منها سكان العاصمة على المياه !! فساعد ذلك على انتشار التيفود وأنواع عديدة من الأمراض . وكانت هذه المجارير كثيراً ما تطفح فى الشوارع و الحوارى ، عندما يرتفع منسوب الفيضان فى شهور الصيف . وارتفع منسوب المياه الجوفية مما هدد البيوت بالانهيار ، وكانت تحيط بالقاهرة حقول الفجل عند شمال القاهرة « باب الحديد » حيث الفجالة . . وكانت المقابر تحيط بالقاهرة ، بل تتخلل أحياءها . . وكانت التلال تحد المدينة من الغرب ، أما الجهة الجنوبية فكانت هناك بقايا وخرائب مصر العتيقة والفسطاط وتلال زينهم .

كانت إذًا مهمة صعبة أمام إسماعيل ، الذى كان يحلم بأن تصبح عاصمة ملكه هى باريس الشرق . . بعد أن عاش ودرس فى باريس الأصلية عاصمة فرنسا . .

وكان مشروع تحديث مصر المحروسة يقوم على ٧ قواعد ، حتى أنه أطلق عليه «برنامج المشروعات السبعة » ؛ لأنه كان يحتوى على ٧ مشروعات حيوية .

كان المشروع الأول هو « تحويل مجرى النيل » ، وبمعنى أدق تثبيت مجرى النيل عند القاهرة . . إذ كان المجرى الرئيسى يمر فى الجهة الغربية محاذيًا لشارع الدقى الآن ماراً ببولاق الدكرور وإمبابة . وكان الفرع الشرقى أو النيل الحالى عبارة عن « سيالة » ضيقة تنحسر عنها المياه أكثر شهور السنة بسبب ارتفاع منسوب القاع . وكان السقاؤون ينقلون منها المياه إلى أحياء القاهرة . . وبسبب تلوث مياه النيل عند هذه السيالة شبه

الراكدة ، انتشرت الأمراض لأن هذه السيالة كانت مرتعاً للناموس ، فلما تولى إسماعيل حكم مصر ، وضع فى مقدمة مشروعاته لتطوير العاصمة مشروع تحويل مجرى النيل الأصلى من الجهة الغربية « عند الجيزة » إلى الجهة الشرقية محاذيًا للقاهرة .

ولمن لا يعلم . . كان مجرى النيل يتجه باستمرار نحو الغرب ، بل كان مجرى النيل يسير تقريباً عند شارع منصور الحالى . . أى كانت كل منطقة الوزارات الحالية ومجلس الشعب ومقر مجلس الوزراء ، كانت كلها فى . . غرب النيل . . فما بالنا بكل حى جاردن سيتى و المنيرة . .

وبدأ إسماعيل مشروع تحويل مجرى النيل فى أواخر العام الأول من حكمه (١٨٦٣)، عندما بدأ ديوان الهندسة بإقامة جسر فى النيل يبدأ من مدينة الجيزة ويمتد إلى إمبابة ، واستمر هذا العمل حوالى عامين كان ينقل فيهما الطمى والرمل والأحجار ليردم ما بين هذا الجسر والأرض غرب النيل ، وكان الهدف تثبيت مجرى النيل بأى ثمن . هذا الجسر هو الآن شارع النيل من كوبرى الجلاء حالياً إلى إمبابة . . وهو شارع النيل والجيزة من كوبرى عباس الحالى إلى كوبرى الجلاء ، ويلاحظ أن هذه الشوارع تعلو كثيراً عن مجرى النيل . . بينما تنخفض الأراضى غربى هذه الشوارع ، أى هى الجسر الذى صنعه إسماعيل لمنع استمرار تحرك النيل غرباً .

وهكذا كسبنا مساحات هائلة من الأراضى ، هى الآن مناطق حدائق الحيوان والأورمان والمساحة والدقى والعجوزة .

وبذلك أصبح المجرى الرئيسى للنيل عند القاهرة هو المجرى الشرقى من شمال جزيرة الروضة إلى بولاق . . وتحول المجرى القديم الأصلى من شط الجيزة ليصبح هذا المجرى هو المجرى الضيق ، هو البحر الأعمى بين كوبرى الجلاء وكوبرى الزمالك إلى أن تنتهى جزيرة الزمالك أمام إمبابة .

كان هذا إذًا هو أول مشروعات إسماعيل لتحديد مساحة القاهرة والسيطرة على النيل . .

وكان المشروع الحيوى الثانى هو إزالة التلال والخرائب التى كانت تحيط بالقاهرة أو تتوسطها وتمهيد أرضها وإعدادها للبناء ، وأيضاً ردم البرك والمستنقعات التى كانت منتشرة وسط القاهرة . وبلغ ما قام بردمه ٢٠ بركة ومستنقعاً زادت مساحتها على ٢٠٠ فدان ، أى تعادل بالضبط كل المساحة التى خصصها جوهر الصقلى لسكنى القاهرة الفاطمية !!

ثم شرع فى نقل المدافن التى كانت تقع وسط القاهرة وتحويل أراضيها إلى ميادين وأحياء سكنية . ومن أشهر تلك المدافن ما كان موجوداً فى المنطقة المحيطة بميدان العتبة وأول شارع الأزهر الحالى وأول شارع عبد العزيز . وقد جمع العظام من هذه المقابر ودفنها فى بئر أقام عليها جامعاً يعرفه العامة الآن باسم « جامع العظام »، الواقع على يمين المتجه من العتبة إلى عابدين ، وهو فى النصف الأول من الشارع . . وبدأ التفكير فى وضع نظام لتزويد العاصمة بمياه الشرب الصحية المرشحة لوقاية الناس من استخدام المياه الراكدة . . وتجفيف الأراضى والتفكير فى تنفيذ مشروع لمجارى العاصمة، ولكن هذا المشروع لم يتحقق إلا عام ١٩٠٩م ، فى عصر حفيده الخديو عباس حلمى الثانى على يد المهندس كاركت جيمس .

وبدأ إسماعيل برنامجاً لشق عديد من الطرق والشوارع والميادين وغرسها بالأشجار ووقايتها من القاذورات ، ثم إنشاء عديد من الحدائق و المتنزهات ، وتعمير الأحياء الفقيرة وإصلاحها وإصلاح مداخل العاصمة . .

وحتى ينفذ إسماعيل مشروعاته هذه وغيرها ، كان بحاجة إلى مهندس كبير بجواره . ووجد ضالته فى على باشا مبارك ، الذى كان أحد أعضاء البعثات التى أرسلها محمد على للدراسة فى أوروبا ، وعاد بعد أن أنهى دراسته ، بعد أن مات محمد على باشا . . وبدأ إسماعيل أعماله بإنشاء وزارة الأشغال عام ١٨٦٥م . وبالطبع لم تكن بالاسم ذاته، ولكنها قامت بعمل هذه الوزارة خير قيام . ووضع على مبارك لائحة من ٣٤

مادة ، تحدد إطاراً للمشروعات التى كان يحلم بها إسماعيل باشا ، وذلك فى يوليو عام ١٨٦٨م . وهذه اللائحة أو الدراسة هى التى اعتمد عليها جراند بك عندما كلفه إسماعيل باشا بوضع خريطة للقاهرة عام ١٨٧٤ م ، واستوحى هذه الخريطة من أفكار ومقترحات المهندس الفرنسى هوسمان .

●● ففى أثناء زيارة إسماعيل لباريس لمتابعة المعرض الدولى التقى بالمهندس هوسمان أشهر مهندسى فرنسا ، والذى قام بإعادة تنظيم مدينة باريس ، وحول مجارى باريس من قنوات مكشوفة إلى أنفاق مغطاة . . واتفق إسماعيل مع هوسمان على أن يحضر إلى القاهرة ليضع تخطيطاً جديداً لها ، ويفكر فى بناء أحياء جديدة وميادين جديدة . . وفى باريس أيضاً التقى إسماعيل مع مسيو بيير جراند بك ، الذى عهد إليه إدارة مصلحة الطرق و الكبارى . كما التقى مع مسيو بيريلى دى شامب ، الذى أقام غابة بولونيا غربى باريس ، وطلب منه تصميم حديقة أو غابة مماثلة لغابة بولونيا مكان بركة الأزبكية ، وكان بيريلى هذا هو الذى صمم حدائق قصر الجيزة ، وقصر الجزيرة أيضاً .

أحياء جديدة لصعوبة تطوير القديمة :

وواجه إسماعيل لتنفيذ مشروع تطوير عاصمته الكثير من المشاكل بسبب طبيعة إنشاء القاهرة القديمة وقبلها الفسطاط والقطائع والعسكر . . وهكذا جاءته فكرة إنشاء أحياء جديدة على أحدث طراز ، مادامت عمليات تجميل القاهرة القديمة تواجه هذه المشاكل . . ومن هنا جاءته فكرة إنشاء واجهة أوروبية جديدة ، على شكل أحياء جديدة تلصق بالحدود الغربية للعاصمة أى فى اتجاه شاطئ النيل . ومن هنا نشأت فكرة إنشاء أحياء الإسماعيلية ، وباب اللوق ، والأزبكية ، والأورمان ، وكل المنطقة الممتدة من ميدان الإسماعيلية « التحرير الآن » إلى منطقة التوفيقية ؛ لتصبح هى قلب العاصمة ، كما أنشأ حى عابدين ، عندما قرر الانتقال للإقامة فى مقر الحكم الجديد فى . . قصر عابدين . .

سكان القاهرة .. ومياه الشرب :

ومن أوائل مشروعاته توصيل مياه الشرب لسكان عاصمته . .

ولهذه المياه حكايات . .

كانت القاهرة تعيش على مياه النيل ، ولكنه كان بعيداً عنها . ومن هنا كان الخليج المصرى ـ خليج أمير المؤمنين ـ هو المصدر الأول لتوفير مياه الشرب للسكان . فكان السقاؤون يحملون منه المياه إلى المنازل و إلى المساجد والوكالات . .

فلما ابتعد النيل غرباً أكثر ، حفر الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى لتسهيل مهمة الحصول على الماء .

وعندما كان الفيضان يأتى فى أغسطس من كل عام ، كان يتم « جبر الخليج » أى فتح السد المقام عند « فم الخليج » فى احتفال كبير لتنطلق مياه الفيضان عبر خليج أمير المؤمنين ، وكان عرضه حوالى ١٠ أمتار ، فينطلق غرب القاهرة « ومكانه الآن شارع بورسعيد من السيدة زينب إلى باب الشعرية إلى غمرة إلى الوايلى . . . » .

●● وبفتح الخليج كانت مياه النيل تنطلق فى الخليج لتمر على البرك ، التى كانت تنتشر فى العاصمة لتملأها وتنتعش ، فيحصل الناس على حاجاتهم من المياه بسهولة ، طوال فتره الفيضان . .

وكانت قناطر المياه « سور العيون » وسيلة أخرى لنقل المياه ـ أعلى السور ـ من عند فم الخليج أيضاً إلى القلعة حيث مقر الحكم وجنود السلطان . . وحيث بساتين ميدان الرميلة « ميدان القلعة » .

ولتوفير المياه للقاهرة ، فكر محمد على باشا فى حفر ترعة فمها عند شرق إطفيح على أن تصب فى الخليج المصرى ليجرى فيه الماء صيفاً وشتاءً داخل القاهرة ، ليواجه مشاكل نقص المياه بعد انحسار الفيضان ، ولكن الفكرة لم تر النور .

ثم فكر عباس الأول فى عام ١٢٦٥هـ فى مشروع لتوزيع المياه باستعمال الآلات الرافعة ، وتوزيعها بالمواسير داخل القاهرة ، وكلف المهندسين بدراسة الفكرة . ولما

أخبروه أن المشروع يتكلف ١٣٠ ألف جنيه رفض التنفيذ بسبب تكاليفها العالية ، وطلب تأجيل المشروع . .

ولما تولى إسماعيل الحكم كلف به شركة مساهمة ، فقامت بتنفيذه بواسطة شركة الماء والغاز . وبدأ توزيع المياه فى القاهرة وضواحيها . وفى عهد ابنه الخديو توفيق بلغت كمية المياه الموزعة بالقاهرة ١٠ ملايين و ٧٦٤ ألفاً و ٥٨٠ متراً مكعباً سنوياً ، وبلغ طول المواسير الناقلة للمياه حوالى ١٥٠ ألف متر من الحديد الزهر بالشوارع والحارات .

وقد بدأت شركة توزيع المياه عملها ، بعد أن صرح لها إسماعيل بالعمل كشركة مساهمة يوم ١٧ مايو ١٨٦٥م ؛ أى بعد عامين فقط من توليه حكم مصر . . وفى ١٤ يونية ١٨٨٠م امتد نشاط الشركة إلى أسيوط ، وفى ٥ أبريل ١٨٨٨ امتد نشاطها إلى حلوان ، وهى الشركة التى عرفت باسم : شركة مياه القاهرة .

وكانت البداية عندما منح الخديو إسماعيل امتياز ضخ المياه إلى مسيو كورديه فى مايو ١٨٦٥م ، وتولت الشركة إقامة أول محطة لضخ المياه بالقرب من قصر العينى عند فم الخليج ـ أى المنطقة نفسها التى كان يبدأ من عندها نظام نقل المياه ـ عبر سور العيون ـ إلى القلعة . . وهو المكان نفسه الذى كان يبدأ من عنده خليج أمير المؤمنين . . . الخليج المصرى بعد ذلك !!

الخديوى إسماعيل .. وتحديث المحروسة :

وفى كتاب إسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ، الذى صدر بمناسبة مرور ٥٠ عاماً على وفاة الخديو إسماعيل « ١٨٩٥ ـ ١٩٤٥ » ، وصف كامل لكيفية إدخال نظام توزيع المياه للعاصمة ، يقول تحت عنوان « المياه الجارية فى القاهرة » : يشمل نظام توزيع المياه فى القاهرة منشأة رئيسية فى جهة معمل البارود على طريق مصر القديمة ، يوفر الماء إلى داخل المدينة كلها ، بما فيها القلعة والأحياء العالية ، ومنشأة مساعدة فى بولاق تمت فى سنة ١٨٧١م ، توزع الماء للأحياء الواطئة وتقوم بحاجة الرش ، وخزان

كبير فى العباسية تم إنشاؤه عام ١٨٧٢م طاقة أحواضه ومرشحاته ٣٠ ألف متر مكعب، وهو يستمد الماء من منشأة بولاق ، ويوزعها على الأحياء المجاورة .

وفى ٢٣ شعبان ١٢٩٠هـ ـ ١٨٧٣م ، أصدر الخديو إسماعيل أمراً كريماً ، تعالوا نقرأه لنعرف أن كثيراً من تكاليف هذه المشروعات تحملها الخديو إسماعيل من أمواله الخاصة .

يقول الأمر الخديوى الكريم :

« بما أن معظم سكان القاهرة يتمونون بالماء من حنفيات شركة الماء لسهولة ورخص ثمنه ، ونظراً إلى أن المياه التى يستهلكها الجمهور تجلب إلى المدينة من الترعة الإسماعيلية، لا من النيل الأصلى بواسطة وابورات الشركة المركبة فيها ، وطبيعى أن ماء الترعة المذكورة ليس كماء النيل لا فى اللذة ، ولا فى الجودة ، وحيث إن الماء الذى سيستهلكه عامة الشعب من المرافق العامة الضرورية ، التى لها أبلغ الأثر فى الصحة العمومية ، وبناءً على ماهو ملتزم لدينا من أن يكون الشعب مستريحاً مطمئناً من ناحية استهلاك الماء ، فهذه الاعتبارات كلها كانت قد أوجبت البحث عن طريقة تضمن للأهلين الحصول على حاجتهم المائية بيسر وسهولة ، فكنا أصدرنا إلى حضرتكم أوامرنا وتعليماتنا فى هذا الصدد . .

« وقد علمنا مما عرضتموه أخيراً ، أنكم بناء على أوامرنا قد درستم الموضوع ، فظهر أنه وإن كان من الممكن تحقيق الغرض الذى ننشده بحفر قناة بين النقطة التى ركبت فيها وابورات الشركة وبين النيل وتركيب وابور فى فم القناة عند اللزوم ، إلا أن هذه العملية تحتاج إلى وقت طويل ، مع أن الحالة القائمة الآن تتطلب إيجاد حل سريع عاجل ، لذلك اقترحتم أنه ريثما يتم مشروع حفر القناة ، إذا ركبت الآن الوابورات بصفة مؤقتة ، فأوصل بواسطتها ماء النيل إلى آبار الشركة ؛ فبهذه الطريقة تتحسن المياه، بيد أن هذه العمليات ، سواء كانت تشغيل الوابورات المؤقتة وتركيبها أو حفر القناة المشار إليها فيما بعد ، تحتاج إلى تكاليف تقدر بخمسمائة وخمسين ألف فرنك ،

مع العلم بأن الشركة ليس عندها المال فى الوقت الحاضر ، فلا تقدر على تحقيق مشروعات فوق العادة من هذا القبيل . .

« نعم علمنا هذا ، ونشعركم بما أن إرادتنا تقتضى أن يوفر للشعب الماء الذى يعد من المرافق العامة الضرورية ، على أن يكون جيداً سهل التناول ، فقد رأينا أن تقوم دائرتنا بصرف النفقات اللازمة للعمليات التى أشرتم إليها ، وحيث إن لدائرتنا فى صندوق الشركة ١٢٠٠ حصة ، كل حصة قيمتها ٥٠٠ فرنك ، فتكفى ١١٠٠ حصة منها لتكاليف العمليات المارة الذكر . وإنى تنازلت عن هذه الحصص إلى الشركة ، بشرط أن تنفق قيمتها للعمليات المذكورة . وإذا علمتم ذلك فعليكم بالعمل على صرف هذه المبالغ التى اختيرت لتوفير الراحة والرفاهية للشعب ، على العمليات المتقدمة الذكر خاصة ، وبذل الهمة والمساعى لتحقيق الغرض المنشود ، كما أمر الخديو أن تتحمل الحكومة تكاليف تركيب المواسير والحنفيات المخصصة لرش الطرق . . » .

هذا عن توفير مياه الشرب الصحية لسكان القاهرة ، فماذا عن إنارة القاهرة . .

لتلك حكاية أخرى . .

إنارة القاهرة .. بالغاز :

فى ١٥ فبراير ١٨٦٥م ، منحت الحكومة المصرية مسيو شارل ليبون امتيازاً لإنارة القاهرة بالغاز ، على غرار الامتياز الذى حصل عليه قبل ذلك لإنارة مدينة الإسكندرية. وجاء امتياز القاهرة لمدة ٧٥ عاماً ، على أن يقوم مسيو شارل ليبون بجميع الأعمال اللازمة لإنشاء مصنع للغاز ووضع الأنابيب اللازمة بمدينة القاهرة وتوابعها [بولاق ومصر القديمة] ، وذلك تحت مسئوليته .

وبعد عامين تقريباً ؛ أى فى أبريل ١٨٦٧م ، كان ميدان باب الحديد قد أضىء بالغاز احتفالاً بدخوله كخدمة عامة . ومن بين الأماكن التى أضيئت منطقة الأزبكية ، وهى الإسماعيلية « التحرير والمنطقة بين التحرير الآن وشارع ٢٦ يوليو » والشوارع الكبيرة وقصور الخديو .

العتبة الخضراء مبنى المطافى من أهم علامات الميدان العريق مع مبنى البوستة العمومية .

وقد تم وضع المواسير ـ أنابيب الغاز ـ بداية من المصنع الذى أقيم فى السبتية ببولاق. وفى الليلة السادسة من هذا الشهر الإفرنكى « ٦ مايو ١٨٦٨ » نوّر باب الضبطية ـ مقر المحافظة على مشارف ميدان العتبة وما جاورها ، وبهذا سيعم الإشراق!! وتكون هذه أول مرة دخل على الأهالى بالفرح والسرور ، واجتمعوا للتفرج عليه من كل مكان داعين للجناب الخديوى المعظم ببقائه غرة فى جبهة الزمان» . وفى مايو ١٨٦٩م أصدر الخديو إسماعيل أمراً بتوصيل الغاز وتنوير الشوارع بالغاز إلى الشوارع الجديدة . وكذلك عمل أثمان البيوت والعمليات اللازمة لفتح سكة (شارع) محمد على وسكة فؤاد والسكة الموصلة من الأزبكية إلى باب الحديد . . و السكة المارة من الفجالة لباب الحسينية ، و الخرابة المار فيها شارع محمد على وشارع عبد العزيز يعمل فيها سويقة لمبيع الأشياء المعتاد مبيعها فى أمثال ذلك بأوروبا ؛ بحيث تكون فى غاية النظام !!

وهذه السويقة المقصودة هى سوق ميدان العتبة الحالية على يمين أول شارع الأزهر ؛ فقد رأى إسماعيل أسواق باريس ، فقرر بناء سوق على هيئتها هو السوق الذى مازال قائماً حتى الآن . وعلى غراره تم بناء سوق آخر فى ميدان باب اللوق . . وأصدر الخديو أمراً بتوصيل المياه والغاز من شركة ليبون لإنارة السوق وتوفير النظافة له محافظة على الصحة العامة . . وكان هذا فى عام ١٨٦٩م !!!

وكما حدث فى مشكلة توصيل المياه ، تدخل الخديو إسماعيل لإنقاذ شركة ليبون للغاز ، ففى ١٧ أبريل ١٨٦٦م علم الخديو أن الشركة تواجه مشاكل فى الحصول على قطعة أرض ، تلائم حاجة المشروع ، فقرر إسماعيل منح الشركة قطعة أرض من أملاك الحكومة على مشارف المدينة . .

وفى ٣١ مارس ١٨٧٠م تم نشر عقد الامتياز للإنارة بالغاز فى مدينة القاهرة ، وجاء فى المقدمة « قد رخص سمو الوالى للمسيو شارل ليبون ، صاحب امتياز الإنارة بالغاز فى مدينة الإسكندرية ، فى أن يقوم بجميع الأعمال اللازمة لإنشاء مصنع للغاز ووضع

الأنابيب « مد الأنابيب تحت الشوارع » اللازمة بمدينة القاهرة وتوابعها (بولاق ـ مصر القديمة) وذلك تحت مسئوليته . .

وتطورت عملية إنارة القاهرة سريعاً . . حتى أنه فى عام ١٨٨٢م كان هناك حوالى ٢٥٠٠ فانوس تضئ ٧٠ كيلو مترا من الشوارع ، وفى أيام الخديو توفيق كان عدد الفوانيس الموزعة ٢٨٠١ فانوسًا منها بالإسماعيلية « الحى » والأزبكية والفجالة وعابدين الثلثان ، والباقى داخل البلد .

واستمرت خدمات شركات الغاز ، لتوصيل غاز الاستصباح لاستهلاك القاهرة . مع توفيره ليس فقط للإنارة ولكن لاستخدام المنازل والمطابخ . وكانت شبكة هذا الغاز ـ أو ما بقى منها ـ تمتد فى الزمالك وجاردن سيتى . ومازال الكثير من قصور القاهرة وشركاتها تستعمل هذا الغاز ، حتى بعد أن تم تأميم شركة ليبون فى أعقاب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .

أول بلدية .. للمحروسة

ولأن إسماعيل كان يحلم بمدينة عصرية ، تنافس العواصم الأوربية التى رآها أو عاش فيها مثل فيينا وباريس وروما التى زارها ، كان لابد لها من « قيادة » تتولى إدارة المدينة والإشراف على نظافتها وتعميرها . . فكان لابد من . . البلدية !!

وجاء القرار بإنشاء بلدية القاهرة يوم ١٤ المحرم ١٢٨٦هـ ـ ٢٧ أبريل ١٨٦٩م ؛ فقد صدرت إرادة سنية لرئيس القومسيون الخصوصى من الخديو إسماعيل بإنشاء وتشكيل وترتيب جمعية خصوصية بشكل « مونسبليه » أى مجالس بلدية للقاهرة . . حيث إن الأنظمة والأعمال النافعة الجارى عملها فى مدينة القاهرة ، والمقرر إجراؤها فى المستقبل ، كلما تقتضى الضرورة ، وأن إدارة البلدة واستحصال لوازمها تقتضى ذلك ، كما هو جار فى سائر البلاد ، لتتولى تنظيم وعمران المدينة ، ويكون كل ذلك بمعرفة هذه « الجمعية الخصوصية » ؛ وحيث إنه من الضرورى منح الجمعية المذكورة صلاحية تقدير زيادة بعض المصروفات الخاصة لاحتياجات البلدة كلما تمس الحاجة ، مع طرح

رسوم وعوائد بمعرفة الجمعية خلال الرسوم والعوائد المقررة لغاية الآن ؛ لحصول التوازن فى الإيرادات والمصروفات !! وتقرر فصل إيراد ومصروفات القاهرة عن نظارة المالية وإسناد ذلك إلى البلدية .

وحتى تستكمل القاهرة أجهزتها وخدماتها ، كان لابد من إنشاء قسم للمطافئ . وكان لابد من الاستعانة بالخبرة الأجنبية . وطلب الخديو إسماعيل من مستر ستانتون قنصل عام إنجلترا أن يرسل إلى حكومته ؛ لكى ترسل خبيراً كبيراً ليدرس الموضوع على الطبيعة ، فيرسل القنصل العام الإنجليزى فى مصر رسالة إلى وزارة الخارجية الإنجليزية يوم ٨ فبراير ١٨٧٥ ، يقول فيها « يود الخديو استشارة اليوزباشى شو رئيس فرقة المطافئ فى لندن ، فى الإجراءات التى تتخذ ضد الحريق ، وتنظيم فرقة المطافئ بالقاهرة . وقد كلفنى الخديو بأن أطلب من سعادتكم أن تتفضلوا فترخصوا لليوزباشى شو فى المجئ إلى مصر للإقامة فيها بضعة أيام ، للإدلاء برأيه فى هذا الشأن » .

وكان لابد من تنظيم المرور فى العاصمة ، بعد أن اتسعت ؛ ولهذا أصدر الخديو إسماعيل نطقاً كريماً إلى مأمور ضبطية مصر يوم ٩ المحرم عام ١٢٨٠هـ ـ ١٨٦٣م ، يقول نصه « من المعية إلى مأمور ضبطية مصر : صدر النطق الكريم بإجراء ترتيب المقدار الكافى من « القواصة » السوارى على الطرق الطويلة ، مثل شبرا ومصر عتيقة وبولاق والشوارع الأخرى ، لمراقبة سير العربات ، حيث وصل إلى مسامع الحضرة الخديوية أنها جارية بسرعة . وبهذا السبب جارى اصطدام بعض الأهالى بسبب سيرها بسرعة ، مع إلقاء التنبهات الشديدة على القواصة المذكورين بعدم تعرضهم إلا لمن كان سائراً بسرعة ، وإنه إذا لوحظ مثل ذلك بأن يتعقبوه ويضبطوه لأجل معاقبته ، ليكون عبرة لغيره ، ووقاية لعابرى الطريق من عباد الله . »

الأجانب كيف رأوا قاهرة إسماعيل :

ولكن كيف كان الأجانب يرون ما يجرى فى القاهرة فى عصر الخديو إسماعيل . تعالوا نقرأ شهادة مجموعة من المسئولين الأجانب :

يقول مستر بيردسلى قنصل الولايات المتحدة فى رسالة إلى وزارة الخارجية الأمريكية ، بعث بها من القاهرة يوم ٩ نوفمبر ١٨٧٢ : رأى إسماعيل ما يترتب من الفوائد على إنشاء مركز دائم لحكومته ، تلتف حوله شتى الوزارات ، فقرر ألا يجعل القاهرة عاصمة ملكه فحسب ، بل أن يجعلها عاصمة تليق بمصر ، لذلك أنفق أموالاً كثيرة وبدأ الجهود فى همة قلما يتحلى بها أمير شرقى ، فعكف على العمل فى السنوات الخمس الأخيرة ، لتجميل هذه المدينة ، التى يمكن تفضيلها اليوم على عدة عواصم أوروبية!!»

ويقول فى رسالة أخرى وأيضاً إلى وزارة الخارجية الأمريكية ، بعث بها يوم ١٥ سبتمبر ١٨٧٣ من القاهرة :

« بلغ التجميل والتبديل فى القاهرة من بضع سنوات ، مدى يصعب على الأجنبى تقدير طبيعته ومداه حق التقدير . وسكان القاهرة نصف مليون نسمة ، وهى قائمة بالقرب من المقطم ، وعلى مسيرة ميل ونصف من النيل (لاحظوا) ومنذ ست سنوات لم يكن الحيز الواقع بين القاهرة و النيل وبولاق إلا أرضاً واسعة منخفضة ، تغمرها مياه الفيضان ، ولا يزرع منها غير بقع عند انحسار هذه المياه . وهذا الحيز اليوم هو الحى الجديد الجميل ، ويسمى بحى الإسماعيلية ، تكريماً لسمو الخديو . وقد ردم على ارتفاع يتراوح بين ست أقدام وثمان بالأتربة التى جلبت من أنحاء المدينة . وقد خططت فيه طرق واسعة لسير العربات، تحف بها الأشجار ، ومنحت الأرض بالمجان « لاحظوا» لمن يتعهد بأن يقيم عليها بناء معين الرسم . وهكذا أنشئت مدينة جديدة تماماً تتألف من أبنية رائعة ، تمتد من المدينة القديمة إلى ضفاف النيل ، فكأنها نشأت بفعل من السحر . .

ويمضى قنصل عام أمريكا ، يقول فى تقريره لوزارة خارجيته ، وهو يصف القاهرة وأعمال الخديو إسماعيل :

« كانت البقعة الشاسعة المعروفة باسم الأزبكية ، تقوم على جوانبها مجموعات من الدور الأوروبية ، يتألف منها الحى الأفرنجى . ولم تكن هذه البقعة أيام الفيضان إلا

بحيرة واسعة ، فإذا انحسرت المياه أصبحت مأوى للكلاب ، ومسرحاً للجنايات ، ومجتمعاً للسوقة . . وقد استحالت اليوم إلى حديقة عمومية رائعة الجمال ذات ممرات رملية وطرق ظليلة ومروج خضراء . ومما يأخذ فيها بالألباب بحيرة صناعية هى آية فى الجمال ، وتحف بهذه الحديقة أبنية أخاذة المنظر منسقة على طراز واحد . .

« وفى داخل المدينة ، خطت طرق جديدة واسعة ، توفر سبل المواصلات ، وتجلب الهواء و النور إلى أحياء تزدحم بالسكان وتوفر الآلات الماء العذب لأحياء المدينة بأسرها، مقابل مساهمة فى النفقات اللازمة ، وهناك مصنع للغاز يورد ٦٠٠٠ متر مكعب فى اليوم ينير الطرق والميادين العامة .

« والطرق الجديدة كلها مرصوفة رصفاً متقناً ، ومحفوفة بالأفاريز « الأرصفة » وبها مجار !! وأنشئ فى شمال المدينة حى جديد اسمه « الفجالة » ، وفى الشمال الشرقى خط حى جديد آخر ، وتجرى الأعمال لردم الحفر ولتعبيد الأرض . وقد تراكمت عليها أكوام من الأتربة نقلت إليها من أطراف المدينة على مر الأحقاب . . ويخترق هذين الحيين طريق واسع ، يوصل إلى موقع هليوبوليس القديم وإلى العباسية ، على طرف الصحراء، حيث تقوم المدارس الحربية »

ويختتم قنصل عام أمريكا فى مصر مستر بيردسلى تقريره إلى وزارة الخارجية الأمريكية فيقول :

« وكذلك أنشىء طريق جميل جداً للعربات ينتهى إلى الأهرام ، ويجتاز الجسرين الجديدين فى الجزيرة « يقصد كوبرى قصر النيل القديم وكوبرى الجلاء » ويجرى العمل على تحويل هذه الجزيرة « يقصد جزيرة الزمالك » تحويلاً سريعاً إلى حديقة عمومية غناء . وسيقام فيها أيضاً المتحف المنوى إنشاؤه عن قريب . . . وكذلك يشرع فى إنشاء حديقة شاسعة شرقى الجزيرة . وشيد الخديو مسرحاً كبيراً جداً للأوبرا الإيطالية ، وآخر أصغر منه للكوميديا الفرنسية وبنيت حنفيات عمومية كبيرة ومساجد وقصور عديدة . وفى كل النواحى نشاهد آيات النشاط والتحسين ، تذكر نشاط الغرب ، أكثر مما تذكر عادات الشرق . . »

أما رينى بك فيذكر ، فى كتاب صدر عام ١٨٧٣ ، أن طول الطرق العامة زاد من ١٨ ألف متر إلى ٤١ ألفا و ٨٠٠ متر . وزادت مساحة الطرق من ١٤٧ ألف متر مربع إلى ٥٤٧ ألف متر مربع !! كما بنى فى القاهرة فى عصر إسماعيل ٢٠ مسجداً جديداً منها مسجد الرفاعى المبنى على طراز فخم بالقرب من القلعة ، وقد قامت بنفقاته سمو الأميرة والدة الخديو . ولهذا المسجد ملحقاته : ملجأ للأيتام وتكية للنسوة العاجزات . . »

المحروسة .. فى آواخر عصر إسماعيل

●● وعلينا أن نعترف بأن القاهرة التى بدأت بمساحة كلية هى ٣٤٠ فداناً عام ٩٦٩م قد اتسعت وزادت مساحتها فى عصر أسرة محمد على باشا ١٠٠٠ فدان ، معظمها تم فى عصر الخديو إسماعيل . ولكن ماذا عن التقسيم الإدارى ، بعد أن اتسعت المحروسة وأصبحت بهذا الاتساع الكبير ؟

يقول على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية التى كتبها وطبعت بأمر الخديو توفيق فى مطبعة بولاق الأهلية بين عامى ١٨٨٨ و ١٨٨٩م ، وصدرت الطبعة الثانية منها عام ١٩٦٩م : كانت أقسام وأحياء القاهرة أيام الخديو إسماعيل وابنه الخديو توفيق مكونة من ١٠ أحياء أو أثمان ، هى أثمان : الموسكى . . الأزبكية . . باب الشعرية . . الجمالية . . الدرب الأحمر . . الخليفة . .عابدين . . السيدة زينب . . مصر العتيقة . . بولاق .

وكان فى الأثمان المذكورة ٤٨ قره قول أى أقسام للشرطة ، موزعة داخل البلد وخارجها لإقامة العسكر بها ، والآن ـ يضيف على مبارك ـ بطل أكثرها ولم يعد باقياً منها إلا القليل .

وكان كل ثمن فيه : بيت للصحة يقيم به حكيم وحكيمة وكاتب وتمورجى للكشف على من يموت ، وتطعيم الجدرى ومعالجة بعض المرضى وإعطاؤهم بعض الأدوية ، وقيد من يولد ومن يموت فى دفاتر مخصوصة ، ترسل إلى ديوان الصحة «وزارة » وإخبار

بيت المال عمن يموت وهو تابع لمجلس الصحة العمومية ، يتلقى منه المخاطبات ويخبره عن جميع الحوادث الصحية .

وفى كل ثمن معاون وكاتب وبضعة عساكر ، وهم تابعون لديوان المحافظة . ووظيفته النظر فى المنازعات و الخصومات ، فما يمكن صرفه . . صرفه (!!) وإلا أرسله إلى جهة الاختصاص .

وبدلاً مما يقال الآن : فلان راح النقطة أو القسم . . . كان يقال : « فلان . . راح التمن » أو بدلاً مما يقال الآن : « والله أروح فيك القسم . . » كان يقال : « والله أروح فيك . . التمن » !!

●● وكان كل ثمن ينقسم إلى شياخات ، تكثر أو تقل بالنسبة لكبر الثمن وصغره، ولكل ثمن شيخ يعرف باسم شيخ الثمن ، وله مرتب يصرف من المحافظة قدره ١٠٠ قرش صاغ شهرياً . وبكل شياخة شيخ يعرف بشيخ الحارة ، ولكن ليس له راتب من المحافظة ، وإنما يتكسب من النقود التى يأخذها باسم « الحلوان » من سكان الأملاك التى فى زمام شياخته ؛ لأن العادة أن من أراد أن يؤجر بيتا فى حارة من الحارات يكون ذلك بمعرفة شيخ الحارة ، وبعد تأجيره للبيت يدفع له أجرة شهر برسم الحلوان!!

وكانت الحكومة تستعين بهؤلاء فى توزيع « الفردة » والطلبات ، ويظهر مما كتبه عبد الرحمن الجبرتى أن هذا الترتيب لم يحصل إلا فى زمن الفرنساوية ، أى أيام الحملة الفرنسية على مصر ، التى جاءت عام ١٧٩٨م ، فهم الذين ابتدعوه ووضعوه ، وبقى مستعملاً من بعدهم إلى الآن . . « أيام على باشا مبارك ، ويضيف : ولم أر ذلك فى خطط المقريزى ، فإنه لم يتكلم عن تقسيم القاهرة ولا الفسطاط إلى أثمان . .

ويقول على باشا مبارك : كان عدد الحارات والعطف والدروب والشوارع فى القاهرة حوالى ١٢٩٠ ، منها ١٣٣ شارعاً كبيراً . وعدد الحارات ١٦ حارة . والعطف ٧١٩ عطفة و ٢٠٨ دروب و ٢٤ سكة ، وفروع السكة ١٦ ، والطرق ١٩ ، وكان طول كل ذلك ٥٤٥٥٩ متراً .

ولكن فى عصر إسماعيل وبعد إنشاء حى الإسماعيلية وحى الفجالة وغيرهما من جسر شبرا وجسر أبى العلا ، وطريق مصر العتيقة بلغ طول الشوارع والحارات ٢٠٨٣٠٩ أمتار ومساحتها ٣٣٢ فداناً ؛ أى إن مساحة ما استجد من الشوارع والحارات يبلغ ١٠٠ فدان ، وهو ما يقرب من نصف عدد الحارات القديمة .

وصارت شوارع القاهرة وحاراتها كالآتى :

٣٤٩ شارعاً طولها ٨٢١٧٦ متراً .

و ٣٥٧ حارة طولها ٤٣٦١٩ متراً .

و ٨٧٢ عطفة طولها ٤٤٢١١ متراً .

و ٢١٩ درباً طولها ٢٨٣٣٦ متراً .

و ١٦ ميداناً طولها ١٨٩١ متراً ومساحتها ٣٤ فداناً . .

وكانت مساحة حى الإسماعيلية الجديدة ٣٥٩ فداناً ؛ أى أكثر من مساحة القاهرة الفاطمية ، عندما أنشأها جوهر الصقلى بحوالى ١٩ فداناً !! وبذلك أصبحت مساحة المدينة الساحرة ٢٩٠٠ فدان ؛ أى زادت فى عصر أسرة محمد على نحو ١٠٠٠ فدان فى عصر إسماعيل .

جوامع مصر .. ومساجدها :

وكان عدد الجوامع ٢٦٤ جامعاً ، منها المدارس التى كانت مدارس للتعليم وأماكن للعبادة ، وكان عدد المدارس ٧٠ مدرسة . بينما كان عددها أيام المقريزى ٨٨ جامعاً و٧٠ مدرسة ، وبذلك يكون ما استجد فى القاهرة بعد المقريزى إلى عهد خطط على باشا مبارك ١٠٦ جوامع .

وإلى عام ٥٦٠ هـ كانت صلاة الجمعة تقام فى القاهرة ومصر العتيقة فى ٨ جوامع فقط ، هى : جامع عمرو بن العاص . . جامع العسكر . . جامع ابن طولون بالقطائع . . والجامع الأزهر بالقاهرة . . و الجامع الحاكمى ؛ أى جامع الحاكم بأمر الله فى القاهرة الفاطمية . . وجامع المقس . . وجامع القرافة . . وجامع راشدة .

وفى أيام المماليك الجراكسة كثرت عملية بناء الجوامع حتى بلغت فى آخر عصرهم ١٣٠ جامعاً تقام فيها صلاة الجمعة ، وكان منها بمصر العتيقة ١٠ جوامع ، وبالقرافة ١١ جامعاً وبجزيرة الروضة ٥ جوامع وبالحسينية ١٢ جامعاً . وعلى النيل خارج القاهرة (!!) ٤٠ جامعاً وبين القاهرة ومصر العتيقة ٣٢ جامعاً ، وبالقلعة ٤ جوامع ، وخارج القاهرة بالترب ٧ جوامع ، وداخل القاهرة ١٧ جامعاً .

وكان الجامع المدرسة على غرار مدرسة ومسجد السلطان حسن ، ومسجد قلاوون ومسجد برقوق والأزهر نفسه . وقد اندثرت هذه المدارس ، وأصبحت جوامع ولم يبق منها مخصصاً للتدريس . وللمدرسين فيه رواتب ، إلا الجامع الأزهر فقط . . ويقول المقريزى إن هذه المدارس لم تكن معروفة زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدثت بعد عام ٤٠٠هـ . وأول مدرسة بنيت فى بغداد عام ٤٥٧هـ ، وكانت مصر فى ذلك الوقت فاطمية . وأول من أقام درساً كان فى خلافة الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله فى الجامع الأزهر ، وكان الوزير يعقوب بن كلس يقرأ درساً فى بيته ، وكتاب فقه على مذهبهم الشيعى ، وعمل مجلساً بجامع عمرو بن العاص . .

أما أول مدرسة أقيمت على المذهب السنى . . فكانت فى عهد صلاح الدين الأيوبى، بعد أن قضى على الدولة الفاطمية وألغى المذهب الشيعى ، وأقامها بجوار الجامع العتيق عام ٥٦٦هـ ، وعرفت بالمدرسة الناصرية وكانت للشافعية . وبنى فى العام نفسه المدرسة القمحية بقرب الناصرية للمالكيين ، ومدرسة السيوفية للشافعية . وبانتهاء الدولة الأيوبية كان فى القاهرة ٢٥ مدرسة ، منها : ٧ للمذهب الشافعى ، و٦ مدارس للمذهب المالكى ، و ٤ مدارس للمذهب الحنفى ، ومدرسة واحدة للمذهب الحنبلى . .

وتارة كان يدرس بالمدرسة مذهبان ، فكان للشافعية والمالكية معاً ٤ مدارس ، ومثلها للشافعية و الحنفية . . وكان عدد المدارس فى آخر حياة المقريزى كما قال فى خططه ٤٥ مدرسة فى نحو ٢٨٠ سنة ، وصار فى القاهرة ٧٠ مدرسة . .

كوبرى قصر النيل القديم أول كوبرى معدنى كبير فى مصر أقيم فى عصر الخديو إسماعيل وفى الضفة الشرقية للنيل نجد على اليسار ثكنات قصر النيل وعلى اليمين فندق سميراميس القديم وهو تحت الإنشاء !!

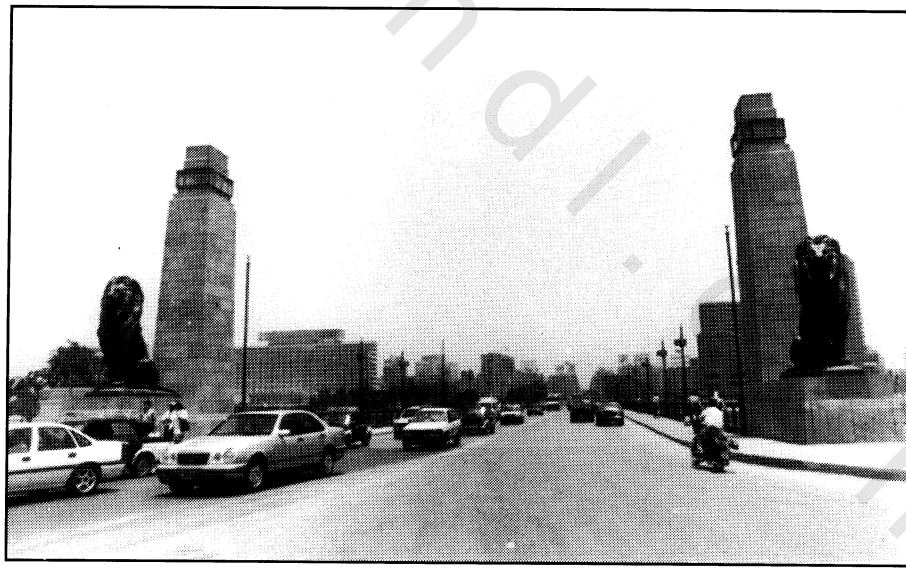

وكوبرى قصر النيل الجديد ، الذى أطلق عليه الملك فؤاد اسم والده العظيم الخديو إسماعيل عندما أعيدت إقامته عام ١٩٣٣م .

قاهرة الخديو على اليمين والمبانى الحديثة والمتحف المصرى على اليسار .

تمثال مصطفى كامل يتوسط الميدان الذى يحمل اسمه . . وبقايا مبانى عصر الخديو إسماعيل .

. . وتمثال طلعت حرب يتوسط الميدان الذى يحمل اسمه . . بعد أن كان اسمه ميدان سليمان باشا
ولاحظوا تخطيط الشوارع التى تتفرع من الميدان الدائرى على غرار باريس .

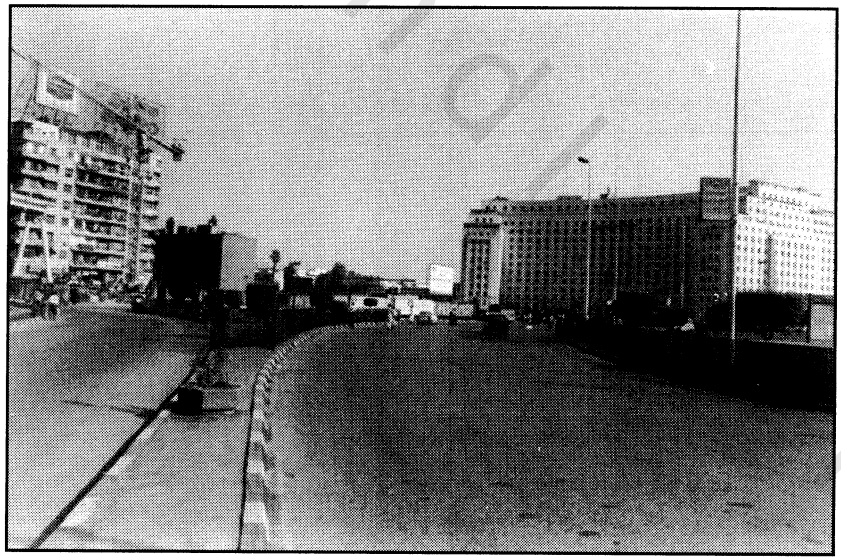

مجمع المصالح الحكومية أشهر وأكبر مبنى حكومى فى أفريقيا .

تمثال سليمان باشا الفرنساوى يتوسط ميدانه فى النصف الأول من القرن العشرين .

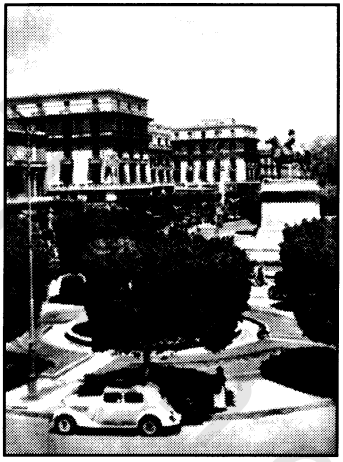

تمثال إبراهيم باشا فى ميدانه الشهير بالأزبكية فى أواخر الثلاثينيات ولاحظوا موديل السيارات .

ميدان إبراهيم باشا الأوبرا سابقاً يتوسطه تمثال البطل إبراهيم باشا وخلفه بقايا حديقة الأزبكية .

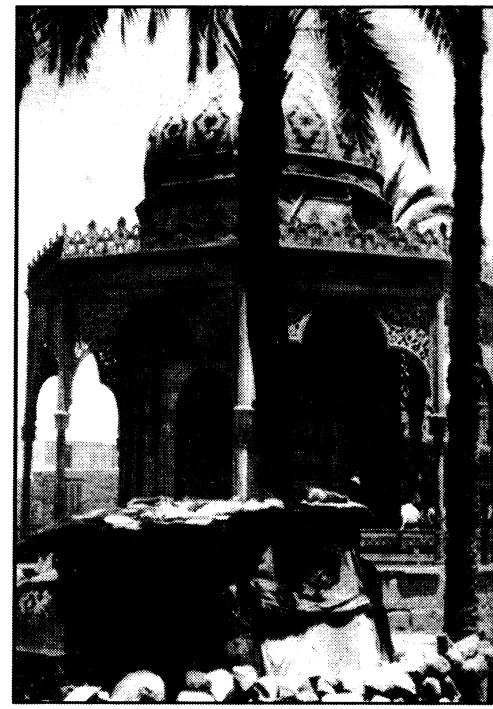

ثم قبر سليمان باشا الفرنساوى فى حديقة قصره فى الحى الذى يحمل اسمه إلى الآن فى حى مصر القديمة .

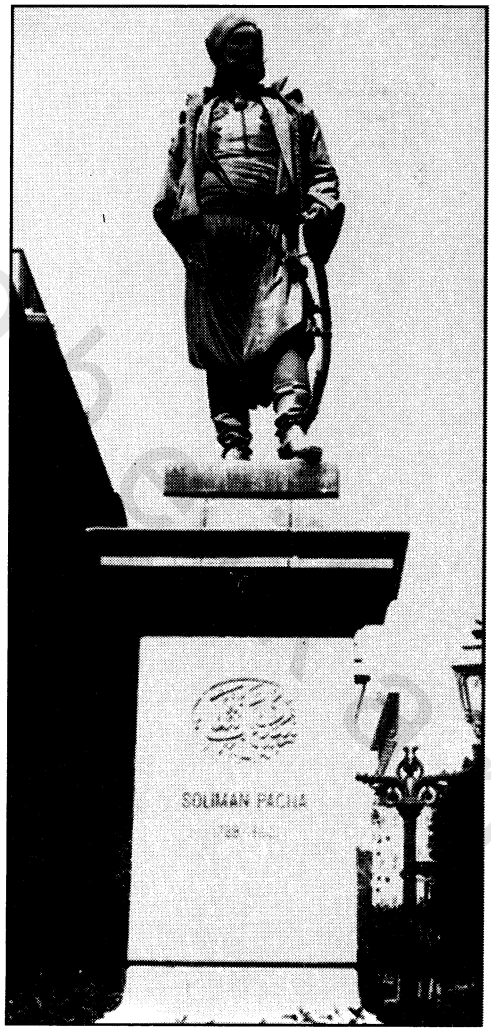

تمثال سليمان باشا الفرنساوى جد الملك فاروق لأمه . . قبل أن ينزلوه من ميدانه . .

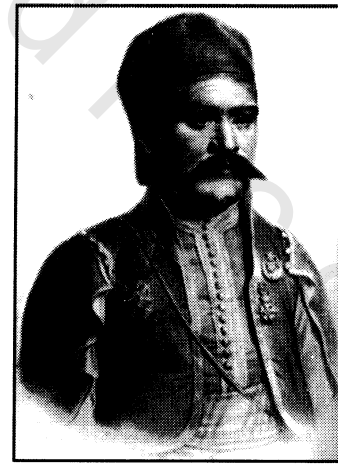

سليمان الفرنساوى رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى عصر محمد على .

شرفة فندق شبرد القديم كما كانت تبدو عام ١٨٨٠م وهو الفندق الذى أقيم مكان قصر محمد بك الألفى فى الأزبكية واحترق الفندق يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ أثناء حريق القاهرة .

جانب من ميدان الأزبكية أيام حملة بونابرت وحوله قصور الأمراء المماليك .

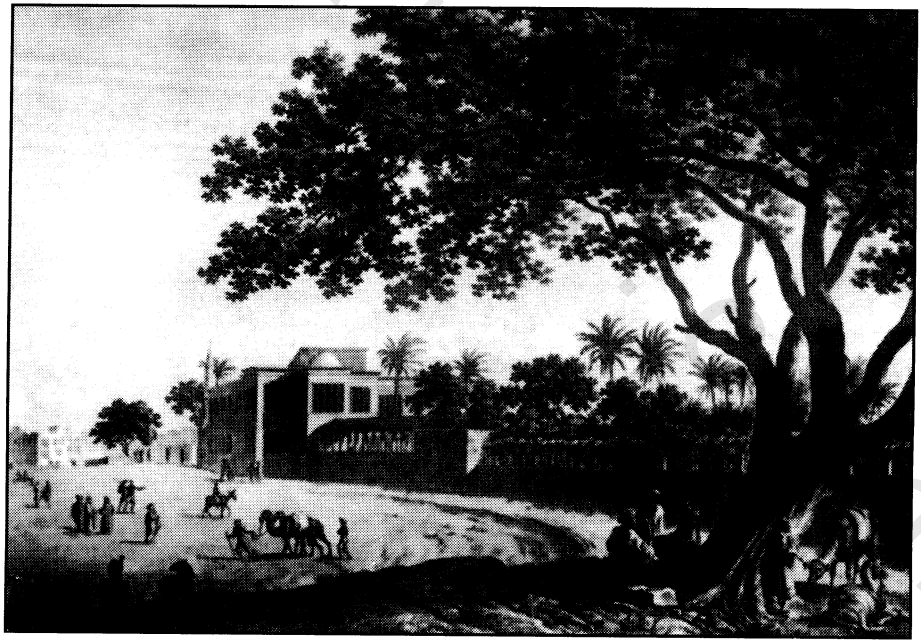

قصر محمد بك الألفى حيث مقر قيادة بونابرت فى مصر من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١م .